

دواعي الإسلاموفوبيا و تداعياتها

توطئة

بعض التعاريف لظاهرة "الخوف من الإسلام"

"الإسلام فوبيا"

كلمة "فوبيا" تنم عن مرض نفسي

التغطية على عدوانية بعض الغربيين ضد المسلمين

لعبارة "الإسلام فيوبيا" بالغرب خصوم

الخوف من الإسلام مجرد "ظاهرة"

مظاهر الخوف و التخويف من الإسلام و المسلمين بالغرب

المواقف السياسية

الحملة الأكاديمية ضد العالم الإسلامي

الحملة الإعلامية المغرضة ضد الإسلام و المسلمين

شيطنة الأكاديميين و الصحفيين الغربيين المنصفين في حق الإسلام و المسلمين

اتهام المسلمين بمعادة و تهديد الديمقراطية بالغرب

تعمد تشويه الإسلام و إخفاء حقيقته

اتهام المسلمين بنوع من التقية المهددة لأمن الغرب

اتهام المسلمين بالخضوع لسيطرة المتطرفين

اتهام المسلمين بمعادة حرية التعبير

التحذير من تغلغل الشريعة بالغرب و من تهديدها للديمقراطية

نشر الإحصائيات الموحية بتهديد الهوية الغربية

التضييق الأمني على المسلمين بالغرب

الأسباب الكامنة من وراء ظاهرة الخوف من الإسلام

الأسباب السياسية من خارج العالم الإسلامي

ضرورة وجود عدو يحافظ به الغرب على لم شمله

الانتهازية السياسية في الحملات الانتخابية بالغرب

دور الحركة الصهيونية في السياسة الخارجية الغربية ضد الإسلام و المسلمين

أحداث تستغلها الصهيونية لتغذية التخويف من الإسلام.

تكشف بهتان الصهيونية ضد الإسلام

انقلاب الصورة ضد خصوم الإسلام و لصالح المسلمين

التخويف من الإسلام ظاهرة تختفي باختفاء مسبباتها

الأسباب السياسية من داخل العالم الإسلامي نفسه

التخويف من دخول الحركات الإسلامية المعتزك السياسي

الفئة المقصودة بالتخويف من الإسلام بداخل العالم الإسلامي.

الأثر العكسي مرة أخرى لهذا التخويف من الإسلام

الأسباب العقديّة

محنة الكنيسة مع انتشار الإسلام على "أرضها"، و مصلحتها في التخويف منه

محنة الملحدين بالغرب مع احتكاكهم بالدين الإسلامي و مع انتشاره تحت أعينهم.

محنة الغربيين مع تنامي نموذج المرأة المسلمة المتديّنة

الاعتماد في الدعاية ضد الإسلام على كتابات الاستشراق المغرض و أمثالهم من المسلمين

رد الفعل المضاد لهذه الحملة للتخويف من الإسلام

الآثار العكسية لصالح الإسلام و المسلمين

الأسباب العنصرية للخوف و التخويف من الإسلام

الخلاصة

ملحق

المصادر و المراجع

توطئة

اخترت هذا الموضوع لشدة اهتمامي به فترة طويلة من حياتي. لقد عشت في بلجيكا مدة إحدى عشر سنة كأستاذ ملحق بالبعثة الثقافية لتدريس اللغة العربية لأبناء و بنات الجالية المغربية بالمدارس البلجيكية. و في نفس الوقت تابعت هنالك دراستي الجامعية. و بحكم عملي و دراستي كنت من جهة متواصلا مع الجالية المغربية و مندمجا فيها بنفس القدر الذي كنت فيه من جهة ثانية متواصلا مع شتى فئات المجتمع البلجيكي. و كنت بذلك أعرف جيدا الموقف بهذا البلد و بباقي أوروبا من الإسلام و من المسلمين، و بقيت بعد عودتي إلى المغرب متابعا باهتمام شديد لتطورات ذلك الموقف، و لاسيما من خلال إعلامه.

عُدت إلى المغرب سنة 1986. و حتى ذلك الوقت كان العمال من الجالية المسلمة رفاق العمل لنظرائهم الغربيين كما كان أولاد نفس الجالية زملاء في الدراسة و أصدقاء في الحي لأبناء الغربيين. فلم يكن هناك لا عداً ضد الإسلام و لا خوف من المسلمين في كل أوروبا. بل لاحظت و عشت على العكس من ذلك، احتراماً و تقديراً كبيرين للمسلمين المتدينين لا من طرف السلطات و لا من جهة عموم الناس. بعبارة أخرى كان المسلم **الملتزم بدينه** عندهم أفضل بكثير من المعرّب من بينهم، الذي يتردد على الخمارات مثلاً، و يستبيح كل المحرمات. و أكثر من كل ذلك فكانت السلطات بكامل ربوع بلجيكا و كذلك بباقي الدول الغربية تساعد بتلقائية كبيرة المسلمين في إيجاد المساجد إما بتوفير بنايات جاهزة لها أو بالتبرع عليها بأراضي لبنائها أينما وجدت حتى بجوار و بالقرب من سكن البلجيكيين.

و من المعروف أن الحكومة البلجيكية في السبعينيات صادقت - فقط لحسابات سياسية بين أحزابها، لا مجال للتفصيل فيها هنا- على قانون يعترف بالدين الإسلامي كأحد الأديان المقبول تدريسيها بكل مؤسساتها التعليمية. و يلزم هذا القانون الدولة و البلديات بتوفير أساتذة لهذه المادة و على نفقتها، كلما وجد تلاميذ مسلمون يرغب أبائهم في تدريس الدين الإسلامي لأبنائهم و بناتهم. و كان المركز الإسلامي بالعاصمة بروكسيل هو المكلف باختيار و اختيار الأساتذة المؤهلين لهذا العمل.

فكل هذه التجربة جعلتني في أول الأمر أتخفظ على عبارة "**الخوف من الإسلام**" التي أصبحت تملأ مساحات واسعة و عريضة من الإعلام لا بالغرب و لا بغيره، تحت عبارة "إسلام فوبيا". و كنت أجد أن العبارة بهذه **الصيغة المطلقة** توحي بأن هذا الموقف من الدين الإسلامي هو موقف لازم له كالصفة "المشبهة عند النحاة"، و لازم لمعتنقيه من طرف غير المسلمين في كل مكان و في كل زمان و من دون أي سبب معين. بالنظر لما عشت و ذكرته آنفاً، فالأمر لا يتعلق بـ "**خوف مطلق**" من الإسلام بقدر ما هو **موقف عدائي** من المسلمين و **جديد بالأخص بالغرب من دون باقي العالم**، و له أسبابه و ظروفه. و من تلك الأسباب ما هو سياسي و ما هو عقدي و ما هو عنصرى. و الأسباب السياسية تنقسم إلى قسمين منها الأغراض السياسية من خارج العالم الإسلامي و أخرى سياسية و مناقطة معها في معاداة التدين من داخله.

و للجواب على السؤال "**لماذا الخوف من الإسلام**"، سنبدأ بحول الله باستعراض بعض التعريفات له من طرف المسلمين من جهة ثم من طرف غير المسلمين من جهة ثانية. ثم ننظر في الأسباب السياسية للتخويف من الإسلام من خارج العالم الإسلامي و لمثيلتها من داخله. و يليها الحديث عن الأسباب العقدية بالغرب تحديداً و التي تأجج فيه هذا النوع من التخويف من هذا الدين. و أخيراً نتناول بالتحليل الأسباب العنصرية. و في كل مرة سنحرص على تقديم الأدلة التي توضح أن الأمر يتعلق بمجرد **ظاهرة** سرعان ما تزول بزوال مسبباتها، فتعود بإذن الله الأمور بأحسن ما كانت عليه من قبل لصالح الإسلام و المسلمين. ثم نختم بالموقف السليم من طرف المسلمين من أجل تحدي هذه الظاهرة من جهة و بما يوجب عليهم من جهة أخرى اعتبار كل الناس على وجه الأرض مشاريع دعوة و ليس أعداء ما داموا غير محاربين لهم و لدينهم، حتى تقوم الأمة بواجب نشر الرسالة الربانية بين كل الناس في كل مكان و في كل زمان.

أما فيما يخص المراجع و الوثائق المعتمدة في هذا المقال فهي صنفين. فمنها بالأساس الوثائق التي يتكلم فيها الغربيون أنفسهم و مباشرة و بلغتهم و من دون واسطة - و لاسيما الفرنسيون منهم - عن ظاهرة "**الخوف من الإسلام**" المتفشية فيهم. و تمعدت إيراد النصوص الأصلية المعتمدة في أسفل الصفحة حتى نلمس الظاهرة مباشرة بألفاظ و

عبارات المعنيين بالأمر أنفسهم، لأن الترجمة دائما نسبية و قد تخون من غير قصد مراد الكاتب. و لاعتماد هذا النوع من الوثائق أهمية كبيرة من جهة ثانية، بالنظر لوفرة المادة بغزارة و لكون استنتاج المعني بالأمر نفسه أجدى للبحث و للدراسة من أقوال من يتكلم عنهم و بغير لغتهم. أما الصنف الثاني من تلك المراجع المعتمدة فهي الصادرة عن العرب و عن المسلمين، و لكنهم ليسوا المعنيين مباشرة بالموضوع بل يكتبون عنه مثلي كشهود عليه، و كل منهم يدلي بوجهة نظره و بخلفيته الخاصة كعلماني أو إسلامي أو مجرد أكاديمي. و هذا هو شأن كل المراجع باللغة العربية في الموضوع التي صدر منها قدر غير يسير و لكنها غير متوفرة بالقدر الكافي في المكتبات و في الخزانات. و على أهميتها فتبقى الوثائق التي يتكلم فيها الغربيون أنفسهم و مباشرة بلغتهم ذات أهمية أكبر لأنها كالشرب من رأس العين، و هذا ما سيكون عليه الأمر إن شاء الله في هذا العرض.

بعض التعاريف لظاهرة "الخوف من الإسلام"

قبل الخوض في تحديد و تحليل أسباب الخوف من الإسلام، فلا بد من البدء باستقراء آراء بعض من اهتموا بالموضوع و التعليق عليها حتى نتمكن من تعريف الظاهرة و تحديد مصادرها و ملامح ظروفها و من تم نتمكن من رصد بعض أسبابها و هو موضوع هذا العرض.

"الإسلام فوبيا"

عُرِفَ الخوف من الإسلام مؤخرًا في الأدبيات الغربية بتعبير "الإسلام فوبيا" *islamophobie* بمعنى رهاب الإسلام أو الخوف المرضي منه. و عرفت كلمة "فوبيا" في أحد المعاجم الفرنسية على أنها تعني الخوف القوي أو النفور الغير عقلائي من شيء ما¹. بمعنى أن كلمة "الفوبيا" المقصود منها هو التعبير عن نوع من الأمراض النفسية. و عرف معجم آخر "الإسلام فوبيا" على أنها شكل معين من أشكال العنصرية الموجهة ضد الإسلام والمسلمين بصفة عامة، والتي تتجلى في فرنسا و في غيرها بالغرب في أعمال عنف مادي أو معنوي أساسه حقد عرقي وتمييز ضد المهاجرين المغاربيين². و عليه فالخوف من الإسلام أو "الإسلام فوبيا" كما يسميه الغربيون هو في الحقيقة أكثر من خوف مرضي كالخوف من ركوب الطائرة أو الخوف من الظلام، و لكنه مظهر من مظاهر الكراهية العنصرية ضد المسلمين في شكل قوالب نمطية. و هو بذلك عنصرية قائمة على أساس الدين.

و هذا ما جاء في تعريف طوماس دلطومب لعبارة "الإسلام فوبيا". فبحسب التعاريف المستعملة للكلمة، لا بد في نظره، من التمييز بين موقفين : (1) الإسلام فوبيا من النوع العنصري بالنظر إلى المسلمين كفئة عرقية أو (2) كراهية الأجانب حيث الإسلام عنصر "أجنبي"، والانتقادات المشروعة للعقيدة الدينية، على الإطلاق³. و انظر إلى ما جاء في نهاية كلامه عن مشروعية انتقاد الاعتقادات الدينية على الإطلاق، و سنرى لاحقا أن الأمر محصور في الدين الإسلام من دون غيره، رغم وجود ما يقال و بحق في نصوص "العهد الجديد". و سنرى أن حرية التعبير التي يتكلمون عنها كغطاء للهجوم على الإسلام بخاصة، ما هي إلا قناع واهي من أجل تبرير العدوانية ضد المسلمين.

و هناك تعريف آخر للخوف من الإسلام صادر عن مقرر مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة⁴، في دورته التاسعة في سبتمبر 2008. و جاء في النقطة الثامنة من جدول أعماله، أن كلمة إسلام فوبيا ترجع إلى العداء الغير المبرر للإسلام و الخوف منه، و من تم الخوف و النفور من المسلمين أو من أغلبهم. و يرجع كذلك إلى المخلفات العملية لهذا العداء الذي يقع ضحيته المسلمون (أفرادا و جماعات) و إلى إقصائهم من المجالات السياسية و الاجتماعية

¹ معجم Larousse

² معجم Le Robert édition 2006

³ المصدر : الصفحة 312 من :

Thomas Deltombe « L'Islam imaginaire : la construction médiatique de l'islamophobie en France 1975-2005 » Éditions La Découverte 2005

النص الأصلي من نفس المصدر :

« En fonction des définitions possibles des mots utilisés, on doit bien distinguer deux positions : l'islamophobie de type raciste (« musulman » comme catégorie ethnique) ou xénophobe (l'islam comme élément « étranger ») et la critique légitime des dogmes religieux qu'ils soient. »

⁴ Mr Doudou Diène le rapporteur spécial des Nations unies

المهمة. هذه الكلمة ابْتُكِرَت للجواب على واقع جديد، المتمثل في التمييز المتصاعد ضد المسلمين و الذي تنامي السنوات الأخيرة¹. و هذا التعريف فيه جانب كثير من الصواب، لأن أصل الخوف يكون من خطر حقيقي و ملموس. بينما الخطر هنا وهمي. فالخوف من الإسلام كما جاء في هذا التقرير هو بالأحرى نابع من الشعور بالكرهية و العدوان ضد مجموعة بشرية معينة في فترة محددة و بمكان معين و لأسباب طارئة، سنفصل فيها لاحقاً إن شاء الله.

كلمة "فوبيا" تم عن مرض نفسي

في إضافة كلمة " فوبيا" إلى الإسلام إشارة واضحة إلى أن "الإسلام فوبيا" ظاهرة مرضية. عرف إبن بأنه خوف مرضي من الإسلام. و لكن للبعض تحفظ على هذه الكلمة في تعريف ظاهرة "الخوف من الإسلام". فيما أنه لا يقتصر على حالات انفرادية، بل يعمّ وينتشر، فهو أشبه بالوباء، مع فارق أساسي، أنّ الوباء ينتشر "رغماً" عن الإنسان الذي يسعى لمكافحته – كوباء إنفلونزا الخنازير هذه الأيام-. فإن لم يتراجع انتشار المرض يضاعف الإنسان السوي جهوده و يبتكر المزيد من وسائل المكافحة. أما "الخوف المرضي من الإسلام"، فهو، على عكس أي وباء، ليس مجرد خوف تلقائي لأسباب ما، بل كما سنرى لاحقاً، يُصنع صنعا، بعملية تخويف، و يُستخدم كأداة من أجل تحقيق أغراض محددة. و على عكس أي مرض أيضاً، فصانع هذا الخوف من الإسلام، إن رصد ضعفا في مفعوله، بذل الجهد للزيادة فيه، من أجل مضاعفة حدّة الجانب "المرضّي" فيه، مع الزعم أنّه يشكو منها ويريد مكافحتها. و عليه فظاهرة "الخوف المرضي من الإسلام" أصبحت بهذا المنظور ظاهرة "تخويف" غير مرضية من الإسلام، بل هي عملية مقصودة بحد ذاتها².

التغطية على عدوانية بعض الغربيين ضد المسلمين

و يرى آخر أن "ظاهرة الخوف من الإسلام" هي نتيجة لسلوك عند الغربيين بالتحديد، و الغاية منه هو التغطية على النزعة العدوانية عندهم ضد كل ما هو إسلامي و استيعابه و قبوله بوصفه رداً على "عدوانية المسلمين" بزعمه. حتى لا يظهروا هم أنفسهم كعدوانيين من جهتهم³. و من قبيل هذا السلوك العدواني المقنع ضد "عدوانية المسلمين" المزعومة و ضد مشاعرهم – الرسوم الكاريكاتورية نموذجاً – جاء هذا الهجوم على الإسلام و المسلمين مبرراً بحرية التعبير و بذريعة الحفاظ على القيم الغربية من ديمقراطية و حرية و حقوق الإنسان و حقوق المرأة على الخصوص، في مقابل تعاليم دين "رجعي و همجي" بزعمهم.

و يؤكد هذا السلوك العدواني المقنع الباحث الفرنسي فانسان جيسير⁴ Vincent Geisser في كتابه "موضة الخوف الجديد من الإسلام وكرهه"⁵. ففي نظره "الإسلام فوبيا" هي من قبيل التعبيرات الكامنة في سلوكيات و أفعال عدائية ضد المسلمين "تظلمت"، بمعنى لبست قناع الخوف من "الإرهاب" بعد حادث 9/11⁶. و لكن الكاتب لم يتطرق هنا لمسببات الظاهرة، لأنها لم تكن قائمة إبان الحرب الباردة، بل كان الغرب و أمريكا بالخصوص إلى جانب المجاهدين في أفغانستان ضد القوات السوفيتية، و كان العالم الإسلامي، بالنظر إلى معتقداته الدينية بالذات المتنافرة مع الإلحاد، حليفاً قويا لنفس الغرب ضد المد الشيوعي.

¹ المصدر:

Rapport du CONSEIL DES DROITS DE L'HOMME Neuvième session Point 9 de l'ordre du jour. Dans NATIONS UNIES Assemblée générale Distr. GÉNÉRALE A/HRC/9/12 2 septembre 2008

النص الأصلي من نفس المصدر :

«Ce terme réfère à une hostilité non fondée et à la peur envers l'islam et en conséquence la peur et l'aversion envers tous les musulmans ou la majorité d'entre eux. Il se réfère également aux conséquences pratiques de cette hostilité en termes de discrimination, préjugés et traitement inégal dont sont victimes les musulmans (individus et communautés) et leur exclusion des sphères politiques et sociales importantes. Ce terme a été inventé pour répondre à une nouvelle réalité: la discrimination croissante contre les musulmans qui s'est développée ces dernières années.»

² نبيل شبيب: بموقع مداد القلم

³ ادرسي هاني أستاذ الفكر الإسلامي والإلهيات والمنطق بدمشق.

⁴ عضو في معهد البحوث والدراسات المتعلقة بالعالم العربي والإسلامي

⁵ Vincent GEISSER La Nouvelle Islamophobie ، édition La Découverte ، septembre 2003

⁶ من موقع: <http://www.arabicdream.com>

عبارة "الإسلام فيوبيا" بالغرب خصوم

و هناك خصوم الإسلام البارزين في الغرب من كتاب و صحفيين و ساسة و ناشطين في المجتمع المدني و الذين اتخذوا موقفا مضادا من عبارة "إسلام فيوبيا". و يزعمون بأن العبارة وُجِدَت ليس بسبب الخوف من الإسلام و المسلمين و لكن لردعهم هم بالضبط و صدّهم عن انتقاد الدين الإسلامي. و يجدون في العبارة شبهة الاتهام بمرض في حق كل من ينتقد الدين الإسلامي و المسلمين. يقولون أنها تستعمل ضدهم بقصد وصفهم بمرضى عنصريين و بغرض إرهابهم و إسكاتهم حتى يكفوا عن مهاجمة الإسلام. و كل ذلك في نظرهم ضد قيمة من قيم الغرب ألا و هي حرية التعبير.

و لكنها الذي يغضون عنه الطرف أو يتناسوه هو أنها نفس الحرية التي تظلل بها العنصريون لقرون طويلة لاضطهاد اليهود بسبب دينهم حتى نهاية العالمية الثانية. و لم يجد اليهود آنذاك ملاذا أمنا طوال كل ذلك التاريخ إلا في كنف العالم الإسلامي الذي يتجرأ اليوم أحفاد نفس العنصريين لاتهامه بكل ما يحلو لهم من شتائم. و يتساءل أحدهم مستاء من عبارة "إسلام فيوبيا" قائلا، هل لا يزال ممكنا ، في أرض فولتير *Voltaire*، الكتابة عن الإسلام من غير تمجيده و للتعبير عن رفض ظلاميته من دون الاتهام بالانتماء الى فئة العنصريين المرضى بالخوف من الإسلام؟¹

و يرد عليه *Alain Gresh*² بذكر نصوص من التوراة (المحرفة طبعا) منافية لحقوق الإنسان، و لا يستطيع أحد اليوم التهجم على اليهود أصحاب هذا الكتاب و لا على البروتستانت الذين تبنوه إضافة "العهد القديم" مخافة اتهامه بمعاداة السامية، لما تسببت فيه هذه العنصرية ضدهم من مآسي، و التي يود عنصريو اليوم ممارستها ضد الأقلية الجديدة الممثلة في المسلمين بالغرب³. و جاء كدليل على ما يقول بهذه النصوص من "العهد القديم" التي لا يجرأ أحد اليوم على انتقادها، بينما يتجرأ على انتقاد الإسلام من غير وجه حق. و هذه ترجمة للنص المذكور:

"7: 24، إن الرب إلهكم سيسلمك هذه الأمم و سيلقي فيها ذعرا كبيرا حتى تباد. 7: 23 و سيلقي ملوكها بين يديك ، و ستمحي أسماءهم من تحت السماء ، و لن يواجهك منهم أحد ، حتى تبيهم جميعا" صفر التثنية من العهد القديم. اهـ⁴

و علق الكاتب على هذا النص متسائلا هل هذه الدعوة إلى الإبادة الجماعية مصدرها القرآن؟ لا ، بل هي مأخوذة من العهد القديم⁵. و الذي لم يذكره الكاتب هو أن مثل هذا النص أجاز للمستوطنين البروتستانت القادمين من الغرب، و بدم بارد و براحة ضمير، إبادة شعوب أمريكا الشمالية و الجنوبية و شعب أستراليا، و استعباد من تبقى منهم. و حتى اليوم لا زال الصهاينة بدعم من الغرب نفسه يستمدون و حشيتهم من مثل هذا النص من "العهد القديم" ضد الفلسطينيين. أما باسم الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين، فلم أبدا يُبد ناشروه أي شعب و لا استعبدوه، بل كرموها و حافظوا على مقومات ثقافتها من لغة و عادات و أطعمة و لباس، ما لم تتعارض مع دائرة الحرام الضيقة. و غالبا ما لم يحكموهم بل ذاب فيهم من بقي منهم بينهم بالمصاهرة، و حُكمت تلك الشعوب من طرف سادتهم. فلم تكن أبدا حملات الإسلام استعمارية بل كانت ناشرة لرحمة رب العالمين بين شعوب الأرض التي حملت بدورها نفس المشعل لتنتشر نور ربها بجوارها. و هذا ما يتوقف حتى الغربي المنصف عن ذكره إما نفاقا و إما خوفا من خصوم الإسلام ببلده.

¹ النص الأصلي و المصدر :

"Est-il encore possible au pays de Voltaire d'écrire sur l'islam et l'islamisme autrement que de façon apologétique" « islamiquement correcte » « d'exprimer son refus de l'obscurantisme islamiste sans être ipso facto rangé dans la catégorie diabolisante de « l'islamophobie » et du « racisme »." Alexandre del Valle *Le Figaro* le 14/06/2002

² رئيس تحرير أسبوعية : *Le Monde diplomatique*

Le Monde diplomatique - novembre 2001 — Page 32 3

⁴ النص الأصلي بنفس الصفحة من بنفس المصدر :

« Le seigneur ton Dieu te livrera ces nations et jettera sur elles une grande panique jusqu'à ce qu'elles soient exterminées. Il livrera leurs rois entre tes mains ، tu feras disparaître leur nom de sous le ciel ، aucun ne tiendra devant toi ، jusqu'à ce que tu les aies exterminés. »

⁵ النص الأصلي بنفس المصدر :

"Cet appel au génocide se dissimule-t-il dans le Coran ? Non ، il est extrait de l'Ancien Testament" (Deutéronome 7 ، 23 et 24).

و للمزيد من تبيان نفاق الغربيين المعادين للإسلام و المسلمين تحت ذريعة حرية التعبير، و الذين يرفضون في حقهم تهمة "الإسلام فوبيا" جاء نفس الكاتب بنص آخر من "العهد القديم" الذي فيه إهانة للمرأة تستحق بحق الانتقاد و لكن و لا يجرؤ أحد منه على انتقاده بل قل ليس لهم منفعة في ذلك كما يحلو لهم انتقاد الإسلام بغير وجه حق و إنما لمجرد حقد مرضي ضد المسلمين. و النص الذي أورده الكاتب يقول بأن المرأة تكون تحت إمرة الرجل. و المرأة التي لا ترتدي الحجاب فلتقص شعرها. و ليس على الرجل تغطية الرأس لأنه صورة لمجد الإله. أما المرأة فهي مجد الرجل. و لم يُخلق الرجل للمرأة و لكن المرأة هي التي خلقت للرجل، ولهذا يجب عليها تغطية الرأس كعلامة على تبعيتها للرجل"¹ رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس من "العهد القديم"

فإذا كانت حرية التعبير تسمح بانتقاد معتقدات الناس فمثل هذا النص هو الأحق بالانتقاد. و لكنه الكره للإسلام هو بالأحرى المحرك لمثل هذه الازدواجية في المعايير. و قد يقول قائل بأن اليهود لا يخرجون في الشارع الغربي بمظاهر تميزهم عن غيرهم و تستنقز الغربيين. و هذا غير صحيح. فحيث يتواجد اليهود بكثرة في نيويورك و في مدينة أنفرس بلجيكا مثلا يخرج اليهود مميزين عن غيرهم من دون أن يشار إليهم بالبنان.

و هذه بعض صور لليهود اليوم صغارا و كبارا بمدينة أنفرس بلجيكا مثلا، بمظاهر موافقة لمعتقداتهم، تماما كما يظهرون بها في فلسطين المحتلة و لا سيما بالقدس و بمدينة الخليل.



الجالية اليهودية بمدينة أنفرس بلجيكا سنة 2006²

و كغيرهم فلهم الحق في الحرية بالظهور بالمظهر الذي يوافق معتقداتهم و يُعترف لهم بالغرب و بحق بذلك. و لكن نفس الحق لا يُعترف به للطالبات المسلمات مثلا و بموجب القانون في المدارس الفرنسية، و لا يعترف لهم به من عموم خصومهم حتى في الشوارع و في الأسواق، فيعتبرونه استقرازا لهم و يتحاملون عليهم بانتقادهم و انتقاد دينهم، بغرض تخويف غيرهم من الغربيين على صفاء هويتهم الثقافية و الحضارية من تنامي ثقافة أجنبية دخيلة عليهم.

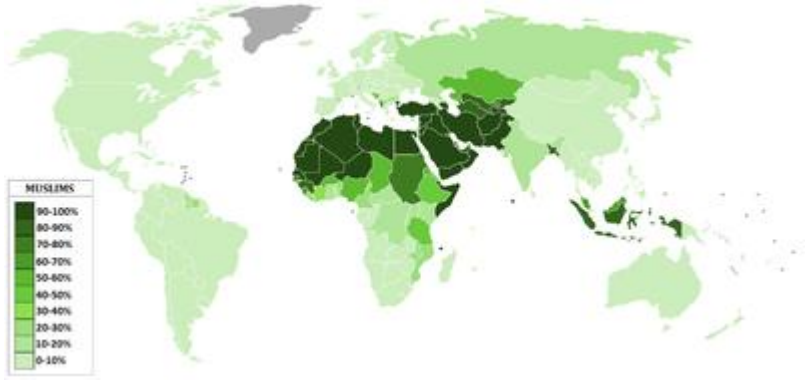
الخوف من الإسلام مجرد "ظاهرة"

و من كل ما سبق يتضح أن الخوف من الإسلام هو فقط مجرد ظاهرة لأنها محدودة في الزمان و المكان من كل تاريخ هذا الدين. و له عدة أسباب محصور في المجتمع الغربي من دون غيره من دول بباقي العالم الواسع و العريض. و العالم الإسلامي الفسيح بمئات الملايين من المسلمين معروف لباقي ساكنة الأرض منذ قرون و ليس بدعة هذ الزمان. فلم يكن يوما معزولا و لا مجهولا. و شاء الله أن يحتل الموقع الوسط من الكرة الأرضية من جهة وجهها المتعارف عليه عالميا كما هو واضح باللون الداكن على الخريطة التالية.

¹ النص الأصلي من نفس المصدر

« Le chef de la femme, c'est l'homme (...). Si la femme ne porte pas le voile, qu'elle se fasse tondre. (...) L'homme, lui, ne doit pas se voiler la tête : il est l'image de la gloire de Dieu ; mais la femme est la gloire de l'homme. (...) Et l'homme n'a pas été créé pour la femme, mais la femme pour l'homme. Voilà pourquoi la femme doit porter sur la tête la marque de sa dépendance. »

² المصدر: «La communauté juive d'Anvers, Belgique 2006» <http://www.tombellephotos.com/communautejuive1/VJuif1.htm>



و الغرب حيث تتحصر ظاهرة الخوف و التخويف من الإسلام و المسلمين لمختلف الأسباب، محدود هو نسه جغرافيا بالنسبة للعالم الإسلامي و بالنسبة لكل العالم. فهو موجود في ركن واحد فقط من الأركان العديدة و المحيطة بكل العالم الإسلامي. فيوجد جزء منه من جهته الغربية الشمالية و المتمثل في كندا و الولايات المتحدة، و توجد أوروبا الغربية في شماله الغربي علاوة على أستراليا بجنوبه الشرقي. و لا عدا و لا خوف من الإسلام و لا من المسلمين بكل باقي العالم الفسيح و المحيط بالعالم الإسلام من كل باقي الجهات.

فلا خوف من الإسلام بكل أمريكا اللاتينية و أغلب شعوبه مسيحية، و لا بكل روسيا و لا بكل أوروبا الشرقية فيما عدى صرب يغوزلافيا السابقة، و كلها مناطق أغلب سكانها ينتمون لمختلف الكنائس الأرثوذكسية. و من بين كل هذه الأقوام أقليات مسلمة من نفس الأصول "العرقية". و لا خوف كذلك من الإسلام لا بجنوب العالم الإسلامي بباقي أفريقيا و لا بشرقه بالهند و الصين و لا بكل دول جنوب شرق آسيا حيث تتركز مختلف الملل الوثنية و حيث يتعايش بسلام و مند قرون كل الوثنيين مع غالبية المسلمين على وجه الأرض، و التي هي شعوب غير وافدة عليها بل هي مرة أخرى من نفس الأصول "العرقية". و بكل هذه البقاع من الأرض ديمقراطيات عديدة و عريقة و حضارات مختلفة ذات تقدم علمي و تقني و تكنولوجي و ليس بها أي خوف لا من الإسلام و لا من المسلمين. بل في أشد الأزمات ضد اليهود بنفس الغرب و طيلة تاريخه ما وجد بنو إسرائيل الأمان و الملجأ الآمن إلا في أحضان العالم الإسلامي من بين المسلمين.

هذا من جهة و من جهة ثانية فليس الإسلام هو كل شيء في حياة كل المسلمين بكل بقاع العالم الإسلامي و طيلة التاريخ الإسلامي حتى ينسب إليه كل ما يقع فيه. و هذا ما جاء و بحق في كتاب "Covering Islam" للكاتب الأمريكي الفلسطيني إدوار سعيد، حيث قال بأنه عند الحديث عن الإسلام ، غالبا ما نغض فيه الطرف عن بعدي المكان و الزمان في تاريخه. و يعود إلى كلمة الإسلام قدر صغيرة نسبيا من كل ما يحدث في العالم الإسلامي الذي يغطي مليار نسمة، موزعة بين العشرات من الدول و المجتمعات و التقاليد و اللغات، و بالطبع ، عدد لا حصر له من التجارب المتميزة. فمن الخطأ محاولة حشر كل ذلك في شيء اسمه "الإسلام".²

و في الأخبار ب TV5 Monde و عن الأخبار بالقناة السويسرية، عشية يوم الجمعة 8 أبريل 2009، استفسر كاتب يهودي عن كتابه "قضية مادوف L'affaire Madov" المتعلق باليهودي الأمريكي المتورط في جريمة اختلاس الملايير من الدولارات عن طريق النصب و الاحتيال. و علق الصحفي عن الحدث بقوله أن مثل هذا الإجرام ليس بالطبع حصرا على اليهودي بل هو أمر عادي يطال كذلك المسيحي و المسلم. و هذه الزيادة في الحديث عن الكتاب لم تكن بلا شك عفوية، بل الغرض منها تبرئة ساحة الدين اليهودي من المسؤولية عن الجريمة، حتى لا يتبادر إلى ذهن المشاهد أن الأمر كذلك، كما اعتاد الإعلام إلصاق جريمة كل مسلم بالإسلام.

¹ Edward W. Said « Covering Islam »، Vintage، Londres، 1997 \ Le Monde diplomatique - novembre 2001 — Page 32

² الصفحة 41 من نفس الكتاب أعلاه و الوارد في جريد Le Monde diplomatique - novembre 2001 — Page 32
النص الأصلي من الجريدة:

« Le terme islam définit une relativement petite proportion de ce qui se passe dans le monde musulman، qui couvre 1 milliard d'individus، et comprend des dizaines de pays، de sociétés، de traditions، de langues، et bien sûr، un nombre infini d'expériences distinctes. C'est tout simplement faux de tenter de réduire tout cela à quelque chose appelé "islam" »

و قبل التفصيل في الأسباب فما هي أولا مظاهر هذا الخوف و التخويف من الإسلام من جهة؟ ثم ما هي من جهة ثانية مختلف الدوافع التي جعلت منه مجرد ظاهرة تختفي باختفاء تلك المسببات و جعلته من جهة ثالثة منحصرًا في الغرب وحده من دون غيره؟

مظاهر الخوف و التخويف من الإسلام و المسلمين بالغرب

طيلة العقدين الأخيرين من القرن الماضي و حتى اليوم، تعددت المظاهر التي تنم عن الخوف من الإسلام و عن التخويف من المسلمين. فمنها الأمنية و العنصرية و السياسية و أخطرها و أقواها الإعلامية. و من تلك المظاهر التي يمكن لأي متتبع رصدها عبر عموم الإعلام العالمي، ما يلي :

المواقف السياسية

في هذا الصدد جاء تصريح الأمين العام للحلف الأطلسي البلجيكي *Willy Claes* سنة 1989 مباشرة من بعد سقوط جدار برلين، الداعي للتصدي للخطر الأخضر بعد سقوط الخطر الأحمر. و يتبنى الإعلام الغربي هذا التوجه، و منه على سبيل المثال اتفاق جل الأكاديميين الأمريكيين على أن الأصولية الإسلامية أصبحت سريعًا التهديد الرئيسي للسلام والأمن العالميين، و هذا التهديد مماثل للنازية و الفاشية في 1930 و الشيوعية في 1950¹

و بالنظر لكتاب الرئيس السابق نيكسون²، فالأمر ليس فقط متعمد و لكنه كما سيأتي التفصيل فيه لاحقًا، يعبر ضرورة حيوية بالنسبة لبقاء الغرب وحدة متكاملة و متكاملة ضد عودة تضارب المصالح و تصفيتها فيما بينها مرة أخرى بحروب طاحنة تمزق أوصالها و تعيث فسادًا في شعوبها. و عليه فمن دون عدو خارجي و حدهم ضده ليس بينهم من قواسم مشتركة قوية و ذاتية تغنيهم عن ابتكار كل مرة عدوا جديدًا يوحد صفوفهم. قيمه قائمة فقط على المصالح، و المصالح مثار خلاف يؤدي حتماً إلى نزاعات و حروب. فلا زال الحذر قائم حتى اليوم بين الغرب و روسيا وريثة الاتحاد السوفياتي.

و تدعم هذا التوجه الانتهازية السياسية إثر كل الأحداث المؤسفة التي يجري البحث فيها عن شواهد لتعزيز حكم مسبق أكثر من البحث عن الشواهد للتوصل إلى حكم صحيح. و كمثال على ذلك قال رئيس الوزراء الهولندي جان بيتير بالكينيد الذي جاء في حديثه أمام البرلمان الأوروبي في ستراسبورج³ أن الجماعات الإسلامية تغرس الكراهية، و ذلك إثر احتجاج المسلمين بالغرب ضد الإساءة إلى معتقداتهم و ضد اعتداءات إسرائيل على إخوانهم الفلسطينيين و عدوان قوات التحالف على العراقيين و الأفغان. كل تلك الاحتجاجات و التظاهرات يفسرها الساسة و الإعلاميون الغربيون على أنها كراهية ضدهم و ضد حضارتهم و ثقافتهم، و يصورونها ككراهية مستمدة من نصوص القرآن الكريم و شريعة الإسلام. و بذلك تصبح كراهية عموم الغربيين للمسلمين و الخوف منهم مبررين كرد فعل على كراهية سابقة منهم. لسان حال هذا الوزير يقول للغربيين إن كنتم تكرهون المسلمين فلأنهم سبقوكم به ضدكم و ضد حضارتكم. و ترسيخ مثل هذه الكراهية في نفوسهم يرسخ خوفهم ممن يكرهون.

و من تلك المواقف السياسية المتناقضة مع الحرية التي تدعي فرنسا أنها مهدؤها و أصلها و في طليعة المنافحين عنها، جاء سنّ قانون منع ارتداء الحجاب بمدارسها⁴، و لا زالت تشجع باقي الدول الغربية على الاقتداء بها، و حجتها مرجعيتها المقنعة و الغير مقنعة في ذلك هي الاقتداء ببلدين مسلمين. و لو صرحت أن كل من البلدين هما مثاليين في الحرية و الديمقراطية لصحّ تبريرها، و لكنها من فرط النفاق، ما زالت تعارض تركيا في التحاقها بالمجموعة الأوروبية بسبب حقوق الإنسان، و تستهدف البلد الآخر بتهمة المس بنفس الحقوق كلما دعت مصلحتها لذلك.

¹ النص الأصلي و مصدره من جريدة *Le mode diplomatique*

« *Le fondamentalisme musulman devient rapidement la menace principale à la paix globale et à la sécurité. Cette menace est semblable à celle du nazisme et du fascisme dans les années 1930 à celle des communistes dans les années 1950* » « *Another Despotism Seeks to Infiltrate the West* » « *International Herald Tribune* » 9 septembre 1993.

² من كتاب " الإسلام و أمريكا حوار أم مواجهة؟" تحليل لكتاب "الفرصة السانحة" للرئيس السابق ريتشارد نيكسون. ص: 16

³ <http://news.bbc.co.uk>

⁴ قانون منع حمل "الرموز الدينية السافرة بالمدرسة" المصادق عليه بالجمعية الفرنسية يوم 10 فبراير 2004.

الحملة الأكاديمية ضد العالم الإسلامي

يتم الترويج للكتاب الغربيين المغرضين من مثل *Alexandre Del Valle*¹ الذي نُشر له في عام 2002 كتاب تحت عنوان: "*Le totalitarisme islamiste à l'assaut des démocraties*" أي "الشمولية الإسلامية تنقض على الديمقراطيات" و الذي كانت شهرته قد ترسخت وتلقى دعم كل وسائل الإعلام التي تبحث عن الإثارة. و في الآونة الأخيرة زاد على ما سبق ظهور كتابات إعلامية وكتب، تساهم في "التخويف" بصياغة موجهة إلى العامة مع محاولة إعطائها خلفية "بحث علمي" لمجرد كثرة الاستشهادات فيها، وهذا أسلوب يعتمد على الجهل العام بالإسلام، فلا يكاد القارئ العادي من عامة الأوروبيين من غير المسلمين يملك القدرة على التمييز بين الحق والباطل في تلك الكتابات، ناهيك عن إمكانية كشفه عما لا تذكره عمدا مع وجود ضرورة ذكره من زاوية الأمانة العلمية.

و من الأكاديميين بالولايات المتحدة من يكتب ليس لتخويف عامة الغربيين من الإسلام، بل لساقتهم حتى يبنوا سياساتهم الخارجية و استراتيجيات الأمن القومي ببلدانهم على أساسها. و على رأس هؤلاء سموئيل بي هنتنغتون² الذي يزعم في كتابه "الإسلام والغرب، آفاق الصراع" أن الفوارق الدينية هي التي ستكون المصدر الأساسي لصدام الحضارات مستقبلا. فمان في نظره الصراع بين القوى الكبرى إيديولوجيا بين اقتصاد السوق و الشيوعية. و بعد انهيار المعسكر الاشتراكي يتصور أن الصراع لن ينتهي بين البشر، بل سيستمر بأخر صراع في العالم على أساس اختلاف الثقافات بين الشعوب و الأديان منها و بالخصوص. و يسكون طرفا هذا الصراع هما الحضارة المسيحية اليهودية "المتطورة و المتقدمة" من جهة و "الإسلام و الكنفوسيشية" المتشبثتان بالتقليد البالية و العادات القديمة من جهة ثانية، باستثناء اليابان الذي تأمرك إلا حد ما في نظره.

و يحدد مناط و طبيعة الخلاف و التباين بين الكتلتين اللتين ستشكلان طرفي هذا الصراع الأخير بين بني البشر في العناصر التالية:

- (1) العلاقة بين الله و الإنسان
- (2) العلاقة بين الفرد و الجماعة
- (3) العلاقة بين المواطنين و الدولة
- (4) و العلاقة بين الآباء و الأبناء
- (5) و العلاقة بين الزوج و الزوجة
- (6) اختلاف الرؤى في الأهمية النسبية للحقوق و المسؤوليات و الحرية و المساواة³

و يعطي الكاتب كمثال مصغر لهذا الصدام الحضاري المستقبلي، مجابهة و رفض القومية الفرنسية لتنامي حضارة دخيلة عليهم من طرف المهاجرين المغاربيين، ثقافة عربية و إسلامية طالما احتقروها و حقروها، و يخافون منها على هويتهم. و مثل هذه الكتابات الأكاديمية غزيرة و تغذي الخوف من الإسلام و من المسلمين بالغرب على أعلى صعيد اجتماعي و سياسي.

الحملة الإعلامية المغرضة ضد الإسلام و المسلمين

يتواتر حتى اليوم و في كل مناسبة و حتى بغير مناسبة، استدعاء و استجواب و استفسار الإعلام الغربي لمجموعة من "خبراء الخوف و التخويف" من دون غيرهم، و تقديمهم للجماهير الغربية و غيرها تحت يافطة *islamologues*⁴. فيحللون و يفسرون و يُنظرون و يتكلمون عن المسلمين و كأنهم مخلوقات غريبة حلت مؤخرا بالأرض، فوضعت للدراسة و التحليل في مختبرات معقمة و تحت المجهر كما تخضع الحشرات و الفيروسات الخطيرة لمثل هذه الدراسة مع قفزات من البلاستيك الأبيض من طرف الأكاديميين. و كمثال على ذلك هذا التعليق بجريدة لوفيكارو الفرنسية من أحد الصحفيين السينمائيين الذي يقدم على أنه من "المتخصصين" في الإسلام، حيث يقول بأن

¹ مقدم على أنه : *spécialiste de géo-politique*

² *Samuel Huntington* أستاذ نظم الحكومات و مدير معهد جون إم أولين للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفرد الأمريكية

³ *Samuel Huntington* "الإسلام و الغرب، آفاق الصراع" ترجمة مجدي شرشر. الصفحتين 11 و 12

⁴ المدعي التخصص في دراسة الإسلام، و يكون في الغالب من غير المسلمين أو مسلما و لكن من غير علماء الإسلام.

الإسلام في حد ذاته ليس معتدلاً، و يكفي قراءة القرآن ، المليء بالتهديدات والشتائم من كل نوع كي يقتنع بذلك كل متشكك. و يزيد مستفسراً: هل تساءلتم عن سبب وجود مليار مسلم يرزحون تحت أنظمة بعضها أكثر استبدادية من غيرها؟ لماذا الإسلام لا يمكن أن يفصل عن التخلف بالرغم من توفره على النفط وغيره؟¹

و هذا "متخصص" آخر في الإسلام يقول بأنه منذ زمن محمد (صلى الله عليه و سلم: من عندي و ليس من عند الكاتب) و الإسلام مجرد غزو. و محمد (صلى الله عليه و سلم) نفسه كان عسكرياً غازياً. و اليسوع لم يقاتل أبداً بالأسلحة في يده. الفرق إذن أساسي. فمن جذوره ، و في القرن السابع الميلادي ، وبعد القليل جداً من الوقت - قرنان أو ثلاثة - عرف الإسلام توسعاً رهيباً. هذه النجاحات العسكرية جعلت للمسلمين في العصور الوسطى يعتقدون أن دينهم هو الحق. و الجهاد سيحمل لفترة طويلة -- وهي ظاهرة التوسع عن طريق الحروب الصليبية - فكرة أن الإسلام لا يمكن أن يكون إسلاماً إذا لم يفلح عسكرياً. و لذلك لا ينبغي أن يوجد ما يتعارض مع توسيع نطاق الإسلام. هذا هو لب القرآن. في هذا السياق ، نفهم جيداً كيف أن الحركة الإسلامية "التوسعية" ممكنة²

و احتل هذا الصنف من المتخصصين في شيطنة الإسلام و المسلمين مساحات واسعة في كل أنواع الإعلام الغربي و فرض أنفسهم فيه كمراجع لا يستغنى عنها، مستفيدين من الغموض الذي يلف هويتهم الحقيقية في أذهان المتلقين الغربيين، و الذي يقع ما بين "مستشار الأمير" المغرض والباحث العلمي النزيه.

و الهدف من كل ذلك هو شيطنة الإسلام و المسلمين و بناء صورة نمطية و سلبية عنهم يهيمن من خلالها في ذهن و وجدان غير المسلمين و الغربيون منهم على الخصوص، نموذج "المسلم الإعلامي"، في صور منتقاة بعناية:

- ✓ جماعة من المؤمنين تصلي تراهم من الخلف دوماً،
- ✓ لتجمعات من المسلمين حاشدة تصيح وتهدد،
- ✓ لنساء محجبات يملأن شوارع بعض العواصم الغربية.
- ✓ مسلم ملتح فمه مفتوح وعيانه زائغان.

شيطنة الأكاديميين و الصحفيين الغربيين المنصفين في حق الإسلام و المسلمين

و يتم الهجوم المنظم من طرف نفس الإعلام الغربي المغرض على كل الكتابات الغربية المنصفة ضد الخوف و التخويف من الإسلام و على كل ما من شأنه الدعوة إلى التعرف المباشر على حقيقة هذا الدين، باعتبار أن الإنسان يخاف بطبعه مما يجهل. و الغرض من كل ذلك الهجوم المنظم ضد مثل هذه الكتابات هو الحدّ من المفعول الإيجابي المتوقع منها و المعاكس لنقيضها الداعي للتخويف من الإسلام و المسلمين. و يصل هذا الهجوم المسعور إلى حد اتهام هؤلاء الكتاب الغربيين مثل *François Burgat*³ و غيره بالتطرف و حتى بالتعاون مع "الإسلاميين" المتشددين. لكن بعد الحرب الأخيرة على غزة بدأ الكثير من مثل هؤلاء الكتاب المنصفين و حتى من بين السياسيين من البرلمانات الغربية، بالتححرر من عقدة الخوف من اتهامهم بالتعامل مع المتطرفين بالعالم الإسلامي، و من بينهم المستشرق الفرنسي *Alain Gresh*⁴

¹ النص الأصلي و المصدر:

« L'islam en tant que tel n'est pas une religion modérée : il suffit de lire le Coran, truffé de menaces et d'imprécations en tout genre pour s'en convaincre ! (...) Vous êtes-vous jamais demandé pourquoi la totalité du milliard de musulmans croupit sous des régimes plus despotiques les uns que les autres ? Pourquoi l'islam ne parvient pas à s'arracher, malgré le pétrole et le reste, au sous-développement ? » Pour un "Vatican II de l'islam" ! » Guy Hennebel Journaliste de cinéma *Le Figaro*, 1er octobre 2001.

² النص الأصلي و المصدر:

« Depuis Mahomet, l'islam est conquête. Mahomet lui-même a été un combattant militaire, un conquérant ; Jésus n'a jamais combattu les armes à la main. La différence est donc fondamentale. Dès sa genèse, au VIIIe siècle, et sur très peu de temps, deux ou trois siècles, l'islam connaît une expansion foudroyante. Ces succès militaires vont confirmer aux musulmans médiévaux que leur religion est dans la vérité. Le djihad va transporter pour longtemps - phénomène amplifié par les croisades - l'idée que l'islam ne peut pas être l'islam s'il ne réussit pas militairement. Rien ne doit donc s'opposer à l'expansion de l'islam. C'est le cœur même du Coran. Dans ce cadre, on comprend assez bien comment l'islamisme est possible » Jacques Rollet, maître de conférences à l'université de Rouen et théologien catholique : *Entretien au Point*, Paris, 21 septembre 2001.

³ François Burgat أستاذ في العلوم السياسية و مدير بالمركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي منذ مايو 2008 و مدير المعهد الفرنسي للشرق الأوسط بدمشق.

⁴ رئيس تحرير جريدة *Le monde diplomatique*.

اتهام المسلمين بمعادة و تهديد الديمقراطية بالغرب

يتم اتهام دين الإسلام بكونه نقيض الديمقراطية فلا يلتقيان. وهو بالطبع ادعاء غير حقيقي بل مغرض و يتكرر باستمرار. فحين تُذكر تركيا أو ماليزيا في الإعلام الغربي يشار على أن كل منهما "ديمقراطية بالرغم من أنها ذات أغلبية مسلمة" أي استثناء في عالم الأصل فيه الاستبداد من طبيعة دينه، هكذا. و كأن الرئاسة في الجمهوريات بالعالم الإسلامي تحولت إلى رئاسات بالوراثة بوحى من تعاليم الإسلام. و كأن كل حكامها كانوا دائما من الإسلاميين الملتزمين بتعاليم الدين و الإسلامي، و كأن المعارضة المضطهدة فيها هي القوى العلمانية و ليست الإسلامية. و كأن الشعوب المسلمة ليست فقط متشبثة بالمستبدين فيها بل تعشقهم و تتفانى في حبهم بوحى من الإسلام أيضا. و من شأن مثل هذا الادعاء تخويف عموم الغربيين الذين يعتبرون الديمقراطية من أكبر المكاسب عندهم، من أنها مهددة بتواجد تكاثر المسلمين من بينهم. فيقول أحدهم بأن مبدأ رفض سلطة الكفار عند المسلمين تفسر جل صراعاتهم و حروبهم ضد الكفار في كشمير و في السودان و في أرمينيا و الشيشان و في كسوبا و مقدونيا، حيث المسلمون أصبحوا أغلبية¹ و في مثل هذا التصريح إحياء صريح لعموم الغربيين بمشروعية خوفهم من تكاثر المسلمين بينهم.

تعهد تشويه الإسلام و إخفاء حقيقته

يتم عمدا إخفاء الحقائق التي تقند كل الادعاءات الباطلة و تؤكد في المقابل أن الدول و الشعوب الإسلامية أظهرت نفس الجدية و الحماس التي أظهرتها الدول و الشعوب الغير المسلمة في التعامل مع الديمقراطية. و عرف الماضي القريب لأمريكا اللاتينية المسيحية العديد من النظم المستبدة و بدعم من أمريكا، و لم يُتهم فيها أبدا دين المسيحية بمعارضته للديمقراطية. في حين أن أكثر من نصف عدد المسلمين في العالم – و البالغ ما يقرب من 1.4 مليار نسمة - يعيشون في دول ديمقراطية، و تحكمتها حكومات منبثقة عن أغلبية برلمانية منتخبة ديمقراطيا مثل إندونيسيا و ماليزيا و باكستان و تركيا و بنغلادش و إيران التي تجهر بطبيعة نظامها الإسلامي و التي تناوب على رئاستها ثلاثة رؤساء بانتخابات ديمقراطية من دون اعتراض عليهم، و أخيرا شعب فلسطين الواقع تحت الاحتلال و الذي اختار حركة المقاومة حماس بكل حرية و بانتخابات شهد لها العالم بنزاهة نادرة بالدول العربية. و علاوة على كل ذلك فتواجد ما يفوق مائة و أربعين مليون مسلم بالهند و من سكانها الأصليين لم يشكل أبدا أدنى تهديد لديمقراطيتها العريقة.

و الديمقراطية الحقيقية و النزيهة هي عين مطلب الحركات الإسلامية بجل باقي الدول المسلمة. و لما شهد كل العالم بالنزاهة للانتخابات في فلسطين، و أفضت بانتخاب حماس على حساب فتح، انقلب عليها نفس الغرب و قاطع حكومة إسماعيل هنية رغم كونها تحت رئاسة عباس الذي يرضون عنه، و شجع إسرائيل على حصارها. و الغرب متهم بالمساهمة في تدبير الانقلاب على تلك الحكومة الديمقراطية، حتى آلت الأوضاع إلى الانقسام الحاصل حتى اليوم. فبالنظر لكل ما سبق و في شأن الديمقراطية بالخصوص، يحق للمتابع أن يتساءل، من أولى بالخوف من الآخر؟ الغربيون من المسلمين أم المسلمون من الغربيين؟

و من جانب آخر نجد أن تركيا العلمانية نظاماً و المسلمة شعباً خطت خطوات عملاقة في الديمقراطية و أوصلت حزب إسلامي للحكم بالبرلمان و بالحكومة و حتى رآسة الدولة بالرغم من معارضة علمانية قوية، مما أهلها للتفاوض مع الاتحاد الأوروبي حول طلب العضوية. و نفس الشيء بالنسبة للسنغال حيث انتصرت الديمقراطية الفتية بأغلبية سكانه المسلمة، حيث تناوب على الرئاسة فيها بطرق ديمقراطية و جد سلمية ثلاثة رؤساء منذ الاستقلال و كان أولهم الرئيس الراحل سيدار سنغور و هو مسيحي.

وفي سنة 1990 كانت البوسنة المسلمة تناضل من أجل الحفاظ على قيم التسامح و الديمقراطية، فيما كان المتطرفون الكروات والصرب، يذبحونهم باسم العصبية المسيحية الأرثوذكسية المتطرفة، و على أرض أوروبا نفسها و في صمت رهيب من كل الغرب الذي يتشدد بالدفاع عن الديمقراطية و عن حقوق الإنسان، و تحت أنظار الإعلام

¹ النص الأصلي و المصدر:

« Le principe de "refus du pouvoir infidèle" explique (...) la plupart des conflits qui opposent musulmans et "impies" au Cachemire, au Soudan, en Arménie, en Tchétchénie, et même au Kosovo et en Macédoine, où les populations musulmanes sont devenues majoritaires » Alexandre Del Valle: politologue français spécialisé dans les questions géopolitiques liées à l'islamisme, aux questions européennes et au terrorisme. *Le Figaro*, 25 septembre 2001.

الغربي المتحيز ضد الإسلام و المسلمين، و الذي تعمد غض الطرف عن تلك المجازر¹ كما فعل مع الحرب الأخيرة على غزة، التي كانت فيه أخبارها تأتي بعد العديد من الأخبار العادية و من دون ما يكفي من الصور الفظيعة و المتوفرة بكثرة من الإعلام العربي. كل ذلك حتى لا تهتز الصورة السيئة التي عمل نفس الإعلام الغربي المغرض على ترسيخها في عقول عموم الغربيين ضد المسلمين.

و مرة أخرى يحق التساؤل، من الأولى بالخوف من الآخر الغربيون أم المسلمون ؟ ألم تكن تهديدات أمريكا بضرب سوريا و إيران تُرهب و تزرع الرعب في قلوب المسلمين و غيرهم بهذين البلدين و غيرهما من بعد ما علموه و عايشوه من مآسي حرب نفس الغرب على شعبي العراق و أفغانستان؟

اتهام المسلمين بنوع من التقيّة المهددة لأمن الغرب

اتهام المسلمين بأن قولهم فيما بينهم وراء جدران مغلقة هو نقيض ما يقولونه علنا. و الغرض منه التحذير من السماع لوجهات نظرهم و إثارة الشكوك حول ما يستطيعون إيصاله من حقائق تكذب بالدليل ادعاءات أعدائهم. و تُعزز خصوم المسلمين بالغرب في هذا الصدد، تصريحات و كتابات القلة القليلة من المسلمين من أصحاب المواقف المتشددة و المستنقزة، من مثل الذين حاجوا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه فقال لهم قولته الشهير "كلمة حق يراد بها باطل". و لن يخلو من مثلهم لا زمان و لا مكان من بين المسلمين، فُتنتقى بعناية مواقفهم و تصريحاتهم و كتاباتهم على الشبكة و على غيرها، و تُضخم و تُقدم على أنها الخلفية المخفية لكل المسلمين الذين يتظاهرون نفاقا بزعمهم، بأنهم مسالمون كباقي الناس. و يتعلق الأمر بكتابات بكل اللغات من قبيل "سيحيين وقت رجوع الخلافة فيتم غزو و فتح المسلمين للغرب" و "الغرب دار كفر و دار حرب" و "أسلم تسلم..." و "الديمقراطية كفر مطلق" الخ... فلولا طول المعاشرة و العيش المشترك بين المسلمين و عموم الغربيين الذين تعرفوا على بعضهم البعض في الحي و في أماكن العمل و في المدرسة، يمكن تصوّر ما يعنيه ذلك من توجس و حيطة و حذر في الاحتكاك و الحديث اليومي بين المسلم و غير المسلم.

اتهام المسلمين بالخضوع لسيطرة المتطرفين

اتهام كل المسلمين بالخضوع لتنظيمات إسلامية "متطرفة و سرية" توجهم و تثير غضبهم و تظاهراتهم و احتجاجاتهم على الإساءات و الانتقادات المتكررة و المتعمدة التي تطال معتقداتهم و مقدساتهم. و بذلك ينفون عن المسلمين الغيرة العفوية و الطبيعية على مقدساتهم، و لا يعترفون لهم بمشروعيتها ربما لما أصاب الدين عندهم من وهن في نفوس الناس في مقابل العلمانية الكاسحة. و الهدف من ذلك الاتهام هو أن يسود الاعتقاد بين عموم الغربيين بأن المسلمين يمثلون "طابورا خامسا" و أن من بينهم "خلايا نائمة" يمكن تحريكها ضدهم في أي وقت من طرف "منظمات متطرفة و إرهابية سرية". و من هذا القبيل نجد مثل هذا التصريح بجريدة لوفيكارو مكزين، حيث يقول الكاتب بأن ما بين الضربة التي هزت مكة الرأسمالية العالمية (يعني أحداث 11 سبتمبر 2001 المنسوبة للأصولية الإسلامية)، و تشدد حركات مكافحة العولمة، و الحركات الانفصالية و المتعصبون للفدرالية، يوجد قاسم مشترك و هو معارضة الدولة ديموقراطية الليبرالية. و يجب عليك أن تكون أعمى حتى لا ترى مدى السرعة التي يجري بها الداء.² و في ذلك إحياء بأن السلمون بحكم طبيعة دينهم هم من الفوضويين و تكاثرهم مرة أخرى في الغرب "العالم الحر" يشكل طابورا خامسا خطيرا على قيمه.

اتهام المسلمين بمعاداة حرية التعبير

اتهام المسلمين بمعاداة حرية التعبير و باقي القيم الغالية و المقدسة بالعالم الغربي. و يعزز ذلك بزعم خصوم الإسلام، احتجاجاتهم على نفس الإساءات لمقدساتهم المُتعمد استنزاهم بها. و القصد من تلك التهمة أن يشيع بين عموم

¹ و منها مزجرة مدينة سربينيتشا التي كانت سنة 1995 تحت حماية جنود الأمم المتحدة من هولندا، فصفى فيها تحت أنظارهم 8000 مسلم بدم بارد من طرف الصرب.

² النص الأصلي و المصدر:

« Entre le coup qui vient d'ébranler La Mecque du capitalisme mondial et le durcissement des mouvements antimondialistes, autonomistes, ultra-fédéralistes, tous adversaires de l'Etat démocratique libéral. Il faut être aveugle pour refuser de voir avec quelle vitesse le mal court » Alain-Gérard Slama, professeur à Sciences-Po, Figaro-Magazine, 6 octobre 2001

الغربيين الاعتقاد بوجود تنافر بين القيم الإنسانية النبيلة عندهم من جهة و المقدسات العقديّة المتطرفة عند المسلمين الموجودين من بينهم من جهة ثانية، فيُطعم الخوف و التخويف و الحذر و الحيطة منهم.

التحذير من تغلغل الشريعة بالغرب و من تهديدها للديمقراطية

يتم ذلك بالتشهير بسلوكيات المسلمين المتحفظة من كل المواقف و العادات المتعارضة مع معتقداتهم الدينية. و ذهب خصوم الإسلام بفرنسا إلى حد الادعاء بأن الشريعة الإسلامي هي بصدد اختراق القضاء الفرنسي. و استغل لذلك الهجوم على المحكمة الفرنسية بمدينة ليل التي قضت بإنصاف و عدل و وفق القانون الفرنسي، بتطبيق عروس من زوجها المسلم، بعد أن اتضح أنها ليست بكر و من بعد ما وقعت في عقد الزواج على أنها بكر. فرفع الزوج دعوة ضدها من أجل فسخ ذلك العقد، و تم إصافه. و يتم دائما التشهير برفض بعض المسلمات فحصهن أو توليدهن من طرف أطباء رجال. و يتم التنديد كذلك حتى بامتناع تلاميذ مسلمين من تناول لحم الخنزير بالمطاعم المدرسية على أساس عقيدتهم، و بامتناع بعض الطالبات المسلمات عن السباحة بمسابح مختلطة و بامتناعهن عن الجلوس بمقاعد المدرسة بجانب طالب.

و يبرر نفس الإعلام الغربي المغرض تشهيره بهذه المواقف من طرف المسلمين و المسلمات بتهديد الإسلام للسلوكيات و للتشريعات الليبرالية بالغرب، و ذلك مرة أخرى تحت يافطة "تغلغل بوادر الشريعة فيها". و يستشهدون على ذلك بكل وقائع مستجدة من مثل إقدام المسؤولين مؤخرا في أحد مساح برلين على الامتناع ذاتيا عن تقديم مسرحية فيها إساءات للأديان عامة بما فيها الإسلام، خشية ردود الفعل عليها من المسلمين. و تم التشهير في هذه المرة بهذه الواقعة تحت يافطة "تراجع الدفاع عن الحرية أمام خطر تدخل الشريعة"

نشر الإحصائيات الموحية بتهديد الهوية الغربية

نشر الإحصائيات المفزعة للغربيين. فالأمر يتعلق بإحصائيات متوقعة استقبالا من بعد عقود من الزمن لعدد المسلمين بالغرب. و بغض النظر عن صحتها أو المبالغة فيها، يصدقها المسلمون بحسن نية و يستبشرون بها خيرا، و لكن لا يدرون أن الغرض منها هو بالضبط إخافة عموم الغربيين من استفحال ديموغرافية قوم غريب عنهم يهدد هويتهم و ثقافتهم و قيمهم و قوميتهم بالذوبان. و منها أن سكان الضفة الجنوبية للبحر المتوسط من إفريقيا يزداد بمائة مليون نسمة في الفترة التي يزيد فيها سكان الضفة الشمالية بأوروبا فقط بستة عشر مليون نسمة. و يشير نفس المصدر أنه خلال العقود المنصرمين فقط، انتقل من هذا الجنوب إلى أوروبا تسعة ملايين مهاجر بكل الطرق الشرعية و الغير الشرعية من أجل حياة أفضل¹. و تهتم الكنيسة بالخصوص مع غيرها بالغرب بتلك الإحصائيات التي تشير دائما إلى المقارنة بين تطور عدد المسلمين بالعالم بعدد الشعوب المسيحية اليهودية².

التضييق الأمني على المسلمين بالغرب

و من النفاق المتكرر أنّ السياسيين و المحللين الغربيين الذين يُعتمد عليهم في توصيف المسلمين، يميزون بين عامة المسلمين الراغبين في السلام و التعايش من جهة، و وبين فريق من المسلمين يلجأ إلى العنف غير المشروع من جهة ثانية. ولكنّ الصحيح بمقارنة هذه الأقوال مع الإجراءات التي تتخذها السلطات بالغرب أو تنوي اتخاذها، نجد أنها تعم كل المسلمين من دون أدنى تمييز و تبدأ الشبهة ضدهم بمجرد الاطلاع على الاسم بالجواز أو ببطاقة الهوية أو برؤية ملامح الوجه، فتكشف عن أنّ التعميم هو الأصل لديهم وليس الاستثناء.

و عمت تلك الإجراءات الأمنية و الاحترازية حتى المسيحيين من أصول عربية أو آسيوية من خلال الاسم أو الملامح. و شهد على ذلك المغني مرسيل خليفة المسيحي، و الذي احتُجز في مطار نيويورك هو و فرقته لساعات بمصالح أمن المطار لمجرد أنهم عرب، و من تم فهم مسلمون مشتبه فيهم و وجب التحقيق في هوياتهم من دون باقي المسافرين. و من هذه الإجراءات التي تعزز الخوف من الإسلام و المسلمين ما يلي و فقط على سبيل المثال لا الحصر:

¹ Ingmar Karlsson "الإسلام و أوروبا، تعايش أم مواجهة؟". ترجمة سمير بوتاني. ص: 7

² إبراهيم أسعدي و مونية رحيمي "نظرية صدام الحضارات أو التهديد الإسلامي، واقع أم اختلاق" سلسلة الحوار الصفحتين 131 و 132

- **التفتيش في المطارات** يطال كل المسلمين من دون استثناء مهما كان شأنهم، و غالبا ما ينتهزها صغار الموظفين فرصة سانحة للإمعان في إهانتهم و إذلالهم، نساء و رجالا، و بالخصوص من كان شكله و هيئته توحى بأن يستحق الاحترام من بينهم.
- **الاحتياطات الأمنية المبالغ فيها** في منح تأشيرات السفر،
- **ابتكار الجديد من وسائل إثبات الشخصية على جواز السفر والهوية،**
- **تخصيص قاعدة معلومات عن الأشخاص المشبوهين لدى أجهزة الأمن و المخابرات،**
- **تبادل المعلومات بين تلك الأجهزة فيما يتعلق بقضايا "الإرهاب"،**
- **إباحة ما لا يباح عادة من إطالة فترات الاعتقال والترحيل عن البلد المعني دون قرار قضائي،**
- **التصنت على الهاتف النقال و الثابت و مراقبة استخدام الشبكة العالمية، على أساس (الشبهة) بوجود صلة ما بالإرهاب، وليس على أساس حكم قضائي وإثبات قطعي، مع ملاحظة أنّ هذه "الشبهة" باتت مركزة على المسلمين بالخصوص.**
- **مطالبة المسلمين بالتجسس على بعضهم البعض و الإخبار بالمشتببه بهم (بريطانيا نموذجا)**
- **التمييز في العمل على أساس الانتماء للدين الإسلامي خصوصا في قطاع الطيران و في المطارات الغربية.**

و كل هذه المظاهر لا تتم فقط عن نية تعزيز الخوف و التخويف من الإسلام و المسلمين بل من شأنها إن دامت، أن تتحول إلى كراهية و حيرة و حذر متبادل و دائم. إلا أنها بحمد الله محصورة في الغرب من دون غيره، و لها أسباب مختلفة و متغيرة تجعل منها مجرد ظاهرة، و مهما طالّت لا بد أن تختفي بقتور مفعول تلك الأسباب إما من ذاتها لأنها مبنية على باطل فسرعان ما ينكشف، و إما تقع أحداث جديدة فتمحي أثرها ثم تختفي و يختفي معها الخوف الوهمي من الإسلام و المسلمين، ليس فقط في الغرب و لكن بكل العالم، إلا أن الأثر يبقى محصورا و لمدة بالغرب وحده. فما هي تلك الأسباب؟

الأسباب الكامنة من وراء ظاهرة الخوف من الإسلام

و من التعريفات للإسلام فوبيا بأقلام غربية و التي تعيش الظاهرة مباشرة و من داخلها، يرد الكاتب توماس ديلتومب¹ أسباب الظاهرة إلى ثلاثة عوامل و هي أولا مخلفات الحرب بالجزائر، و لاشك أنه يعني بها حرب التحرير، ثم إلى الرؤية السائدة بالغرب عن الإسلام و أخيرا ما يسميه بأسلمة أنماط الحياة² و في تحديد الأسباب بهذا الشكل تبسيط ينم النظر إل الظاهرة من زاوية الكاتب الضيقة و خلفياته. فالظاهرة جديدة و متأخرة جدا عن حرب التحرير بالجزائر. و صحيح أن الرؤية إلى الإسلام كانت دائما مشوهة بالغرب و لكن لم تكن مخيفة كما هي عليه الحال اليوم. فلا بد من شيء جديد جعل تلك الرؤية مخيفة لبعض الغربيين. أما فيما يخص أسلمة أنماط الحياة فالأمر يخص الأقليات المسلمة بالغرب و بالفعل الظاهرة تتنامى بحمد الله و بقدر ما يعتز بها المسلمون بقدر ما تثير حقد خصوم الإسلام فيثيرون حولها الشبهات المهددة للهوية الغربية بغرض التخويف منها و من المسلمين. و لهذا فأسباب ظاهرة الخوف من الإسلام بالغرب لها بلا شك عوامل كثيرة، منها الخفية و منها الظاهرة و مختلفة في درجات التأثير. فلا يمكن حصرها، و لكن يمكن تعداد الأهم منها، و ذلك ما سنحاول تناوله في هذا الفصل بعون الله.

فمن تلك الأسباب ما هو سياسي من خارج العالم الإسلامي، و منها ما هو سياسي من داخله، و منها الدوافع العقدية، و منها أخيرا الكراهية التي أساسها العنصرية. و في ما يلي تفاصيل تلك الأسباب التي ستشكل إن شاء الله محاولة للجواب على سؤال هذا العرض: "لماذا الخوف من الإسلام" و مشفوعة كلما اقتضى الحال بالآثار ليست فقط السلبية و إنما العكسية لصالح الإسلام و المسلمين.

¹ المصدر :

Thomas Deltombe « L'Islam imaginaire : la construction médiatique de l'islamophobie en France 1975-2005 »

² النص الأصلي بنفس المصدر في الصفحة 263

« Trois éléments clés de la peur de l'islam: le traumatisme de la guerre d'Algérie, la visibilité de la religion musulmane et la crainte de l'islamisation des modes de vie »

الأسباب السياسية من خارج العالم الإسلامي

ضرورة وجود عدو يحافظ به الغرب على لم شمله

فبعد الحرب الباردة ظهرت في الغرب و على رأسه الولايات المتحدة الأمريكية ضرورة إيجاد عدو مشترك جديد حتى تبقى الكتلة الغربية موحدة سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا و ثقافيا و عسكريا، بعيدا عن الصراعات القومية التي مزقتها لقرون من الزمن قبل الحرب العالمية الثانية. و عليه فبعد انتهاء الحرب الباردة و انهيار الإمبراطورية العظمى فُتح الباب أمام الإعلام الغربي و كُتابه و ساسته لجعل الإسلام هو العدو البديل عن الاتحاد السوفيتي.¹

إلا أن هذا التخويف من الإسلام لم يعد قائما على أساس وجود عدو حقيقي ملموس، كما كان الحال مع الاتحاد السوفيتي الممثل في صورة دولة بعينها و نظام محدد و في باقي الكتلة الشيوعية سابقا، بجيوشها و بترساناتها العسكرية التقليدية منها و النووية. و إنما العدو الجديد هو عدو هلامي و ضبابي صورته في المخيال الغربي عبارة عن جماعات "أصولية" متطرفة و خفية أو ظاهرة، و لكن متشردمة في شكل عصابات "إرهابية" تعمل في السر و لها "خلايا نائمة" لا يعرف لها مكان محدد بالضبط في كل العالم.² الشيء الذي يجعل هذا "الخوف من الإسلام" كالخوف من فيروس فتاك و خفي، و الخطير فيه هو كون كل مسلم أو كل شيء يمت بصلة للإسلام من مسجد و كتب و غيرها مشبوهة بحمل ذلك الفيروس الخفي.

الانتهازية السياسية في الحملات الانتخابية بالغرب

أصبحت الانتهازية في الحملات الانتخابية غير قاصرة على اليمين المتطرف بل تستعملها كل من وجد فيها صالته لكسب صوت الناخب. لا من باقي الأحزاب و لا من طرف المرشحين. و هذا ما استكراه في جريدته جان دنييل باتهامه للحكومة الاشتراكية في 1983 تغذية التطرف ضد الإسلاميين من دون تمييز و من دون خجل و الذي نراه يتنامى من جديد و بخاصة مع الأسف من بين الطبقات الشعبية في فرنسا و أوروبا.³

و لكن الأقلية المسلمة حازت في كثير من الدول الغربية على حق التصويت في الانتخابات، سواء عن طريق التجنيس أو عن طريق قانون خاص يمنح هذا الامتياز للمقيمين الأجانب. فأصبح المرشح للانتخابات ينظر في استعمال الإسلام في حملته بمعيار حساب الربح و الخسارة. و عليه يبني حملته في التعاطي مع هذا الدين. فإذا وجد أن ما يجنيه من ربح باستعمال الإسلام في حملته أكبر من الخسارة فعل. و إلا كف عن ذلك. و ليس في الأمر من أخلاق. و هذه شهادة من الكاتب الفرنسي إيمانيل طود في الموضوع، حيث يقول في كتابه "من بعد الديمقراطية"⁴ بأن ساركزي و أطر حزبه يرون و سيلة مريحة لجلب ناخبي الجبهة الوطنية، في المبالغة في شأن الإرهاب، و في المزيد من الضغط في أفغانستان، و في معارضة دخول تركيا في المجموعة الأوروبية، و في التهديدات العسكرية ضد إيران، و بالإجمال في تحريك كل موضوع يجعل الإسلام في قلب السياسة العامة.⁵

و من شأن مثل هذا الانتهازية السياسية المتلاعبية بمشاعر الناخب الغربي على حساب مصالح الأقلية المسلمة بالغرب أن تؤكد بل تزيد من التخوف من الإسلام. و لقد سبق لسركوزي في حملته الانتخابية للرئاسة أن تحدث عن دبح الأضاحي بالحمامات بالشقوق السكنية. و الرسالة كانت موجهة لناخبي اليمين المتطرف حتى يكسب أصواته. و بحساب الربح و الخسارة، أحجمت غريمته عن الرد على هذا التعليق، لأن ما كانت ستخسره من أصوات الفرنسيين الغير مسلمين أكبر مما كانت ستكسب من المزيد من أصوات المسلمين على حساب غريمها.

¹ المصدر: كتاب " الإسلام و أمريكا حوار أم مواجهة؟" تحليل لكتاب "الفرصة السانحة" للرئيس السابق ريتشارد نيكسون.ص: 16

² و من كتاب Ingmar Karlsson "الإسلام و أوربا" تعايش أم مواجهة. ترجمة سمير بوتاني. ص : 5

³ نفس المصدر ص : 5

⁴ النص الأصلي و مصدره : « Le gouvernement socialiste nourrit cet anti-islamisme indistinct et de moins en moins honteux que l'on voit refluer, surtout d'ailleurs, hélas!, dans les couches populaires, en France et en Europe »

Jean Daniel, Le Nouvel Observateur, du 4 février 1983

⁵ Emmanuel Todd, « Après la démocratie », Gallimard, Paris, 2008.

الصفحة 36 من نفس المصدر

و لكن في بلجيكا و هولندا مثلا، حيث توجد أحزاب مسيحية قوية، و بعد انهيار المعسكر الاشتراكي، أصبحت الأحزاب الاشتراكية بالغرب تفقد باستمرار من نفوذها و من مصداقيتها. و بمحض الانتهازية السياسية تنبعت لقارب النجاة في الجالية المسلمة. و يقول في الموضوع فانسن جيسر حتى في فرنسا حيث تهيمن العلمانية المتطرفة ضد كل دين، أن المرشحين للانتخابات فيها، لا يجرؤون على قول ذلك لأن القواعد الجمهورية تحذره. فيفضلون تجنب الحديث عن "التصويت الديني أو العرقي". ولكن ضمنا، يعدون استراتيجية لاستقطاب الكتلة الناخبة من أبناء المهاجرين و التي أصبحوا يرون فيها كتلة ناخبة مسلمة¹.

فكانت الانتهازية هذه المرة لصالح المسلمين، من حيث ساندتهم الأحزاب الاشتراكية في نيل حق الانتخاب و أصبحت تعوض في كل استحقاق، ما ضاع منها من الأصوات التي تذهب باستمرار لخصومها من اليمين، بأصوات الناخبين المسلمين. و من أجل تعبئة الناخب المسلم لم تتردد تلك الأحزاب في إدراج أسماء المسلمين و العرب على لوائحها الانتخابية. و أصبح من بينهم اليوم ليس فقط مستشارين و عمدة بلديات كبيرة، بل منهم من تبوأ مقاعد بالبرلمان و تقلد مسؤولية حقائب وزارية بالحكومتين ببلجيكا و بهولندا. و عمدة مدينة روتردام الهولندية اليوم هو السيد أحمد بوطالب، الهولندي-المغربي ممن هاجروا فقط بقصد الدراسة. و لقد سبق له بفضل استقطابه من طر الحزب الاشتراكي أن كان كاتب الدولة. و هو اليوم عمدة مدينة بها رابع ميناء بأوروبا الذي طوله أربعين كلم، و أغلب الساكنة مرتاحة لتدبيره لشؤونها.

و الغريب أنه دائما بحساب الربح و الخسارة في الحملات الانتخابية، انقلبت بحمد الله تلك الانتهازية السياسية لصالح الجالية المسلمة. فكثرت أو على الأقل خففت الأحزاب اليمينية بهذين البلدين، من هجومها على الإسلام و المسلمين، لأنها وجدت فيه تعبئة للناخب المسلم ضدها و زيادة في عدد الأصوات لغريمها الاشتراكي من دون زيادة مماثلة في أصوات العنصريين لصالحها التي استفدتها. فأصبحت ترى في هجومها على المسلمين حملة ضدها و المستفيد منها هو خصمها الحزب الاشتراكي. و هذا هو المتوقع مستقبلا إن شاء الله في باقي دول الغرب، لأن أصوات الأقليات لعبت دائما دورا حاسما في ترجيح الكفة لهذا الحزب أو ذاك. و لولا تلك الهجمات عليهم لما تحرك المسلمون ليكون رقما يحسب له ألف حساب في الانتخابات بالغرب. و هكذا يتبدد مع الزمن سبب من أسباب صناعة الخوف من الإسلام، بحيث حين يصيح اليمين المتطرف قائلا بأن الإسلام يشكل خطرا على الغرب، يرد الاشتراكيون و اليساريون عموما بأن اليمين المتطرف العنصري هو الذي شكل خطرا على الغرب كما سبق له شكله في الماضي القريب.

دور الحركة الصهيونية في السياسة الخارجية الغربية ضد الإسلام و المسلمين

فهذه الحركة هي حجر الزاوية في تأجيج التخويف من الإسلام و المسلمين بالغرب و الحاصل بكل العوامل الأخرى. و بدأت الصهيونية العالمية و بقوة في دعم الخوف و التخويف من الإسلام مع الثورة الإيرانية سنة 1979 التي بدأت للتو بقطع العلاقات مع إسرائيل، و بسليم مقر سفارتها لمنظمة التحرير الفلسطيني كي سفاة لها بالجمهورية الإسلامية الوليدة. و أعقبها منذ الانتفاضة الأولى دخول الحركة الإسلامية على خط المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، و لاسيما مع ظهور العمليات الاستشهادية لأول مرة، و التي زادت من رُعب الصهاينة و أربكت كل مخططاتهم. و الذي غاضهم أكثر ضد الإسلام هو إفتاء بعض العلماء بمشروعية تلك العمليات و على رأسهم الشيخ يوسف القرضاوي بموقعه على الانترنت² و على الهواء بقناة الجزيرة في برنامجه "الشريعة و الحياة".

لما كانت المقاومة الفلسطينية تغلب عليها القومية العربية كان الإعلام الغربي و الصناعة السينمائية بهوليوود تحت هيمنة الصهاينة، يتفننان و يتنافسان في تصوير العربي بالوحش البربري المستحق لسحقه من دون رحمة و لا شفقة، و لكن من دون الإشارة لا للإسلام و لا للمسلمين. و لما دخل الجهاد باسم الدين على خط المقاومة و اتضح أنه

¹ النص الأصلي و مصدره: " Les candidats n'osent pas le dire, parce que, règle républicaine oblige, ils préfèrent éviter de parler de vote religieux ou ethnique. Mais, implicitement, ils développent bien une stratégie pour capter un électorat qu'ils percevaient depuis longtemps comme un électorat "beur", et que de plus en plus ils perçoivent comme musulman Vincent Geisser, chercheur au CNRS, Le Monde Politique LEMONDE.FR | 28.02.07

² نص الفتوى من موقع الشيخ القرضاوي "العمليات التي يقوم بها الشباب المسلم الذي يدافع عن أرض الإسلام و عن دينه و عرضه تعد من أعظم أنواع الجهاد في سبيل الله"

أنكى في العدو من غيره بالعمليات الاستشهادية، تفتق مكر الصهاينة باستغلال سيطرتهم على نفس الإعلام بالغرب من أجل المزيد من استعداد العالم كله على الإسلام و على المسلمين. فشرعوا كغيرهم في نبش ما أنتجه الاستشراق الماكر من كذب و بهتان و روجوا لصورة نمطية للمسلم تسميه بالعدوانية و التعطش لسفك الدماء من خلال تعاليم دينه. و كل ذلك بغرض التخويف منه و تبرير وحشية العدو الصهيوني ضد المقاومة الإسلامية بغية ردها، فتستبيح لنفسها الفتك بكل الفلسطينيين العزل من أطفال و نساء و شيوخ بالإضافة إلى المقاومين أنفسهم، كما فعلت مؤخرا بغزة من دون لا حسيب و لا رقيب و لا مستنكر، بل بمن يبرر إجرامها بحجة حقها في الدفاع عن نفسها و عن أمن كيانها.

و من عناة المخوفين من الإسلام و المسلمين بأمريكا و غيرها، الصهيوني المدعو دانييل بايبس¹. و من أقواله بالصحف الأمريكية على سبيل المثال لا الحصر، أن الجماعة الإسلامية المسماة حزب التحرير تهدف الى وضع العالم تحت ظل الشريعة الإسلامية، و كأن هذه الجماعة التي لا يعرف حت مكان وجودها أصبحت قوة عظمى كالاتحاد السوفياتي بترسانته التقليدية و النووية. و لكن ينكشف سر إقحامه للشريعة الإسلامية في تحذيره منها بغرض التخويف من الإسلام حين استطرد في تصريح قائلًا بأن تلك الجماعة تؤيد التفجيرات الانتحارية ضد إسرائيل. فمن أجل أمن لإسرائي عند وجب الخوف من الإسلام و المسلمين و الحذر منهم. و حتى يزيد من التشكيك في كل مسلم بالغرب و تهمة بالإرهاب و لا سيما النخبة منهم، أضاف بأن تلك الجماعة التي تم حظرها في بريطانيا العظمى، زرعت في الجامعات البريطانية تمثيلية سرية لها تحت عنوان "أوقفوا ظاهرة الإسلام فوبيا"². و هنا يهدف لغرضين هما التشكيك في الطلبة المسلمين بالجامعات الغربية، و منعهم في نفس من الاحتجاج على ادعاءاته و من فضحه كعدو عنصري مناهض للإسلام و المسلمين بين الأوساط الأكاديمية بكل الغرب بسبب تحيزه للسافر لإسرائيل ضد الشعب الفلسطيني.

أحداث تستغلها الصهيونية لتغذية التخويف من الإسلام.

و بغض النظر عن كان من ورائها في الواقع، جاءت الأحداث المأساوية بالجزائر، بعد إلغاء نتائج الانتخابات التي فازت فيها جبهة الإنقاذ سنة 1991، لئستغل من طرف الصهاينة من أجل تأكيد ما تروج له من تخويف الغرب من الإسلام و من المسلمين. و سواء كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر من 2001 بنيويورك من فعل القاعدة أو كما شاع في عدة تحاليل و كتب مجرد مؤامرة مغرضة من صنع أمريكي³ لغزو أفغانستان ثم العراق، فقد استغلها الصهاينة أيضا من أجل تصوير المسلمين بالغرب كطاير خامس لا يؤتمن العيش بجوارهم و يستحقون الخوف منهم و من دينهم، و يحق لإسرائيل أن تكون رأس الحربة في قتالهم و إبادتهم من دون رحمة بفلسطين.

و كانت قد سبقت أحداث نيويورك تفجيرات بأنفاق باريس بفرنسا إثر نفس الفتنة بالجزائر، و تلتها أحداث لندن ثم أحداث مدريد إثر الحرب على العراق و أفغانستان، ثم وقعت التفجيرات المأساوية بالعالم الإسلامي نفسه و المتكررة بالدار البيضاء و بعمان و بالسعودية علاوة على توالي التفجيرات الفتاكة بالعراقيين و بالباكستانيين التي لا زالت مستمرة حتى اليوم. و مرة أخرى بغض النظر عن الفاعل و المحرض الحقيقي من وراء الستار أو في العلن، فكل تلك الأحداث صبت في صالح إسرائيل ضد المقاومة بفلسطين و بلبنان. فيشاع في كل الإعلام الغربي على أن كل تلك التفجيرات تحدث باسم الإسلام، أحب من أحب و كره من كره و كذب من كذب.

و صانع الخبر الصهيوني المهيمن على الإعلام العالمي يقول و يكرر على أن كل هذه الأعمال "إرهابية" من طرف "إسلاميين" على غرار "الإرهاب" الذي تعاني منه إسرائيل بزعمهم، تلك الواحة "الديمقراطية" التي تستحق الدفاع عن نفسها بكل الطرق في صحراء من الاستبداد و "الوحشية". فيفهم للوهلة الأولى و في كل العالم بأن كل تلك التفجيرات من وحي الدين الإسلامي نفسه و من طبيعته الخفية، حتى يخاف منه فيبتعد عنه غير المسلمين و يحذرون من أي مسلم. و لما تقع أحداث مماثلة من طرف غير مسلم يتحرى نفس صانع الخبر بالغرب تحاشي ذكر دينه و إن

¹ Daniel Pipes أستاذ للتاريخ الروسي في جامعة هارفارد. و هو الابن الأكبر لريتشارد بايبس. أبوه يهودي من بولندا، هاجر مع زوجته من أوروبا إلى أمريكا كلاجئ في بداية الحرب العالمية الثانية.

² النص الأصلي من جريدة New York Sun 25 octobre 2005

« Le groupe islamiste nommé Hizb ut-Tahrir aspire à placer le monde sous la loi islamique et défend la pratique des attentats-suicide contre Israël. Frappé d'interdiction en Grande-Bretagne, il implanta une représentation clandestine dans les universités britanniques baptisée «Arrêter l'islamophobie».

³ كتاب الصحفي الفرنسي Thierry Meyssan تحت عنوان "l'Effroyable imposture"

أعلن و اعترف الفاعل أن فعلته كانت باسم دينه. و يُكتفي بذكر أنه متطرف أو مخبول عقليا و لكن ليس أبدا لا يهودي، كقاتل المقبور رابين، و لا مسيحي، كتيموتي مفجر البناية الحكومية بأوكلاهوما بالولايات المتحدة، و لا هندوسي و لا بودي و لا غير ذلك.

تكشف بهتان الصهيونية ضد الإسلام

و لكن حبل المكر قصير مهما طال عمره. فسرعان ما يكتشف كل الناس بالعالم على أن كل تلك التهم الملتصقة بالإسلام و بالمسلمين و إن فُعلت باسم الإسلام فهي :

- (1) **محدودة في أفراد معدودين** على رؤوس الأصابع في حين أن عدد المسلمين اليوم يزيد عن ربع تعداد ساكنة الأرض، و غير طارئین عليها و لا يعيشون معزولين عن باقي سكان الأرض حتى يخافهم الناس بل على اتصال بهم في كل مكان و عاشوا و يعيشون من بينهم بسلام لقرون عديدة.
- (2) **محدودة في الزمان** لأنها ظهرت فقط منذ عقدين أو ثلاثة، في حين أن عمر الإسلام يفوق الأربعة عشر قرنا
- (3) **محدودة في المكان** بحيث لا تكاد تتعدى تلك الأحداث الأماكن المرتبطة بفتن الشرق العربي من دون غيرها، في حين أن العالم الإسلامي الآمن و المسالم كباقي بقاع الأرض فسيح و عريض، و يمتد من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي.

و لكل هذا و على الأقل جل الناس، سرعان ما يفهمون أنه لو كانت تلك الأحداث من صميم و طبيعة الدين الإسلامي لكانت عامة في كل المسلمين طيلة كل تاريخ الإسلام و في كل ربوعه و حيث ما وجد معتنقه. و مرت على غير المسلمين أزمنة طويلة و هم لا يزالون حتى اليوم يتعايشون مع المسلمين في أمن و سلام من دون أن يشهدوا فيهم ما يخوف به منهم أعداؤهم. ثم من كثرة التحريض على الإسلام فمن غير المسلمين من يبحث من باب الفضول و حب الاستطلاع في المكتوب عن هذا الدين من طرف أتباعه بأنفسهم بكل اللغات، فيعلمون و يتعلمون و يتيقنون أنه حتى إذا كانت تلك الأحداث حقا من صنع بعض المسلمين فليست أبدا من وحي دينهم. بل الكثير منهم اكتشف أن المسلمين هم المعتدى عليهم و هم المظلومون فصاروا يعتنون أعداءهم بـ "الإسلموفوبيا" بغية وصفهم بالعنصرية ضد المسلمين على غرار "اللاسامية ضد اليهود" و ليس بمعنى الخوف منهم، كما توحى به الكلمة. و يشاع أن عددا من الأمريكيين و غيرهم إثر أحداث نيويورك، لم يكونوا يعرفون شيئا عن الإسلام فبحثوا فيه و منهم من وجد فيه ضالته المنشودة فأسلم.

و من هذه الآثار الطيبة شجاعة بعض الأكاديميين للجهر بالحق منددين بما يسمونه الهجوم المغرض على الإسلام و المسلمين و ينفون عنه أحقية التغطية على عنصريتهم بالحق في حرية في التعبير. و هذا ما جاء في مقال للأكاديمي فريدريك نيرات¹ بجريدة لوموند حيث قال بأن أدمغة، و أساتذة، و مجلات تدعي "الحداثة"، و سياسيين كلهم يساهمون بنشاط في صنع صراعات بين غرب مهووس و شرق وهمي. و يعتنون بألة صنع هذا الصراع بكيل الشتائم والاحتقار. و حين يرد عليها المقصود بها بعنف، ويقولون: "إنه بربري إنه همجي، لقد قلت لكم ذلك". و يضيف الكاتب قائلا بأنها حلقة مفرغة، لن تسفر عن إفراز أية هوية، و لا أية حضارة، و إنما عن قتلى. فيجب الخروج من هذه دائرة. و يعني ذلك بالنسبة لهذا الكاتب، من حيث العمل الفكري، عدم الوقوع فيما سماه هيغل "وحشية التعبير". و يقول بأن وسائل الإعلام تريد إيهامنا بأنه بوسعنا أن نقول أي شيء، و بأية طريقة و عن أي كان. فيقول أن هذا غير صحيح، فالكلمات لها أهميتها، لأنها تبني الواقع الذي نعيش فيه. و المشكلة عنده ليست في فرض الرقابة على الذات و ليست في حرية التعبير، ولكنها مسألة كرم البناء. فيجب بحسب قوله، تجنب الكلمات التي تجعل الفضاء غير صالح للتعايش. و هذا من شأنه أن يمنع الاستنجاد بالدولة، و بالشرطة، و من شأنه أن يجنب الإنسان العيش في خوف².

¹ Frédéric Neyrat دكتور في الفلسفة ، والمدير السابق للبرنامج في المعهد الدولي للفلسفة

² النص الأصلي و مصدره: " Des cerveaux, des professeurs, des revues dites « modernes », des hommes politiques participent activement à la fabrication des conflits entre un Occident halluciné et un Orient imaginaire. On entretient la machine à coups d'insultes et de mépris. Et quand l'autre réagit violemment, on dit : « c'est un barbare, un sauvageon, je vous l'avais bien dit ». C'est un cercle vicieux, qui ne produira pourtant aucune identité, aucune civilisation, mais des morts. Il faut couper ce cercle. Ce qui suppose déjà, pour ce qui est du travail intellectuel, de ne pas tomber dans ce que Hegel nommait la « barbarie de l'expression ». Les mass-médias nous font croire que l'on peut dire n'importe quoi, n'importe comment, à n'importe qui. C'est faux, les mots ont de l'importance, ils construisent la réalité dans laquelle nous vivons. Le problème, ce n'est pas de se

و ليس هذا الأكاديمي بالوحيد ممن بدأ يدق جرس خطر التحامل على الإسلام و المسلمين، بل عددهم يتكاثر يوماً بعد يوم، و من بينهم جاك جوليار¹ الذي ندد بالتخويف من الإسلام قائلاً بأن حجة مناهضة الإسلام ظلت منذ فترة طويلة ذريعة مريحة لإضفاء نوع من الاحترام على كراهية العرب ورفض استضافتهم².

انقلاب الصورة ضد خصوم الإسلام و لصالح المسلمين

و لأن الباطل لا بد أن ينكشف، تكشفت أخيراً عورة المناوئين للإسلام و للمسلمين لما ضاقت صدورهم من الآثار العكسية التي تسبب فيها مكرهم لصالح الإسلام و المسلمين، فغاضهم ذلك و زاغت عقولهم عن المكر المدروس و انزلقوا إلى العدوان و التطرف السافر و المكشوف، فتجرؤوا و نشروا الصور المسيئة للرسول صلى الله عليه و سلم. حينها اكتشف باستغراب الكثير من المسيحيين أن المسلمين كلهم لم يردوا بسبب المسيح عليه السلام، فبحثوا و علموا أن الإنجيل و القرآن من مشكاة واحدة و أن من عقيدة المسلمين الإيمان بأن عيسى عليه السلام رسول الله تعالى و أن سورة كاملة من القرآن الكريم تحمل اسم أمه مريم و انها فيه موصوفة بالعدراء البتول و قديسة. مما انقلب بردا و سلاماً على المسلمين و زاد من احترامهم بين المسيحيين بالغرب و غيره.

و الذي أتى على مكر الصهاينة و مكر كل من يدعمهم بالغرب هو انتخاب حركة المقاومة الإسلامية بالديمقراطية التي يتشدق بها الغرب ضد المسلمين، فتم معاقبة كل الفلسطينيين بتعليق التعامل معهم دولياً بسبب ترأس هنية لحكومتهم، و تلى ذلك أسر الجندي الإسرائيلي، فزج الكيان الصهيوني بمنتخبي الشعب الفلسطيني من حماس في سجونهم، و بدأ التآمر من الداخل على الحركة بغزة فأحبطته، و تم حصارها الظالم ثم تلاه العدوان الوحشي الأخير عليها و الذي كان سببه مرة أخرى حماقة تهافت ساسة الكيان الصهيوني على أصوات الناخبين على حساب دماء الأبرياء من الأطفال و النساء و الشيوخ و بتدمير منازلهم فوق رؤوسهم و قصف جل مرافق حياتهم الأساسية بكل ما أوتي الكيان الصهيوني من قوة، على مسمع و مرأى من كل العالم من دون القدرة على المواجهة مع المقاومة. فانقلبت الصورة الملتصقة بالإسلام و المسلمين، و وصف أخيراً الصهاينة بالوحوش الدارية من طرف كل شعوب العالم و تبين أن المسلمين هم المظلومون و أن الإسلام مرة أخرى بريء من كل ما ينسب إليه ظلماً و عدواناً، و ذلك مصداقاً لقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْسَرُونَ }³

التخويف من الإسلام ظاهرة تختفي باختفاء مسبباتها

ف "الخوف و التخويف من الإسلام و المسلمين" واقع حقا و لكنه هنا و كما فيما سيلي لاحقاً، مجرد طارئ في عمر الإسلام، ما يلبث أن يزول لصالح الحق الجلي بنكشاف باطل و زيف أسبابه. و من تم فما تبقى من الواقع المعادي للمسلمين اليوم هو، في نظري المتواضع، مجرد ظاهرة تزول بزوال مسبباتها، لأن من ورائها كل مرة أطراف مغرضة تستغل كل طارئ للتخويف من الإسلام و المسلمين و الذين دخلوا في هذه المرة معترك السياسة بعد الصحوة الإسلامية المباركة باسم الدين لمقاومة ظلم الصهيونية و ظلم من يساندها فيه بفلسطين و ظلم الغرب بالعراق و أفغانستان. و مرة أخرى فكل ظاهرة هي بطبيعتها طارئة بحيث تظهر بتوفر أسبابها و تختفي باختفاء مسبباتها، و يبقى من ورائها الحق الذي لا غبار عليه، مصداقاً لقوله تعالى {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}⁴ و

censurer, ce n'est pas celui de la liberté d'expression, mais celui de la générosité de construction : il faut éviter de dire des mots qui rendent l'espace inhabitable. Cela évitera ensuite d'en appeler à l'Etat, à la police, cela évitera qu'un homme vive "désormais dans la peur.

Frédéric Neyrat LE MONDE - 05.10.06

¹ Jacques Julliard صحفي فرنسي ومفكر ومؤرخ، و زعيم نقابي سابق

² النص الأصلي و مصدره: « l'argument anti-islamique est de longue date un alibi commode qui habille de respectabilité la haine de l'Arabe et le refus de l'accueillir »

Jacques Julliard . Le Nouvel Observateur, 23 novembre 1989

³ سورة الأنفال الآية 36

⁴ سورة الإسراء الآية 81

قوله {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} ¹ وقوله {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} ²

ولهذا فما تبقى مما يسمى اليوم بـ: "الخوف من الإسلام" لا بد أن يزول كما زالت بالتدريج المعارضة السافرة و العنيفة بفرنسا لارتداء الفتيات المسلمات للحجاب كما سيأتي التفصيل فيه. فكل الغربيين اليوم طبعوا مع رؤية الحجاب في كل مكان من مدنها و قراهم و أصبحوا يتعايشون معه كرمز لأحد قيم الدين الإسلامي الجديرة بالاحترام، بالرغم من أنف من لم يدخروا أي جهد من أجل الترويج له كدليل و مؤشر على استفحال ظاهرة "الإرهاب" بين ظهرني الغربيين تهدد أمنهم و استقرارهم. هذا فيما يخص الأسباب السياسية من خارج العالم الإسلامي، فماذا عن السبب الثاني من باقي أسباب التخويف من هذا الدين؟؟

الأسباب السياسية من داخل العالم الإسلامي نفسه

التخويف من دخول الحركات الإسلامية المعتزلة السياسي

فيوجد بالعالم الإسلامي نفسه من يخاف من انتشار تدين المسلمين لأسباب سياسية هذه المرة. و هو نوع من أنواع "الخوف من الإسلام" المختلفة باختلاف الأسباب. و هو كذلك علامة صحية في حق الأمة الإسلامية. حصل ذلك بعد استرجاع الحركات الإسلامية قوتها و عافيتها من بعد نكسة حرب 5 يونيو 1967 التي انهزمت فيها جيوش دول الطوق أمام إسرائيل و احتلت فيها سيناء مع غزة و الجولان و الضفة الغربية، و بدأت معها انتكاسة تيار القومية العربية بمختلف ألوانه و مذاهبه و إيديولوجياته و الذي كان يسيطر على الساحة السياسية. فاستفادت من تلك الانتكاسة الحركات الإسلامية. و من هذه الحركات من أنشأت أحزابا. و حاول بعضها من دون جدوى الدخول في المعتزلة السياسي كحركة الإخوان بمصر و حركة النهضة بتونس مثلا. و منها من نجحت بعد معاناة في الدخول فيه. و منها الأحزاب الإسلامية بتركيا و أخرى بالأردن و باليمن و بالكويت و بالجزائر و بالمغرب و بغيرها من الدول الإسلامية الغير عربية.

هكذا من داخل العالم الإسلامي خافت من ظاهرة دخول الحركة الإسلامية المعتزلة السياسي باقي القوى السياسية المجافية و حتى المعادية لإدخال الدين في السياسة، و التي تزعم أن هذا المجال هو مجال الانتهازية بامتياز و مجرد لعبة لا يليق دخولها باسم الدين و الأخلاق. و سر تخوفها في الحقيقة هو علمها المسبق بأن مظنة الأيدي النظيفة في تدبير الشأن العام في حق السياسي المتدين في وجدان العدد الكبير من الناخبين بالعالم الإسلامي ترجح كفة نياله غلبة الأصوات على حساب المصالح الخاصة لغيره من السياسيين. و هكذا تقاطعت مصالح هؤلاء مع مصالح غيرهم بالغرب من المعادين لانتشار الإسلام لأسباب مختلفة. و منهم من ذهب به الخصومة السياسية مع الإسلاميين في بعض الدول إلى درجة التعاطف حتى مع الصهاينة ضد المقاومة الإسلامية علاوة على من يخاف بالغرب من تهديد قيمهم و نمط عيشهم بانتشار الإسلام في مجتمعاتهم كما سيأتي لا حقا. و القاسم المشترك بينهم جميعا هو "الخوف و التخويف من الإسلام" و لكن كل لأسبابه الخاصة.

الفئة المقصودة بالتخويف من الإسلام بداخل العالم الإسلامي.

فمن بعد انتشار الإسلام بسرعة كبيرة في فجر الإسلام انطلاقا من خلافة عهد عمر رضي الله عنه و حتى اليوم، الكثير ممن دخلوا في هذا الدين و ممن ولدوا مسلمين لم ينالوا حظهم من التربية الإسلامية السليمة كالتالي حظي بها الرعيل الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه و سلم. و عليه فلم يكن يوما في كل تاريخ الإسلام و حتى اليوم كل المسلمين متدينين و على بينة من دينهم. و هؤلاء الغير المتدينين لا ينكرون أنهم مسلمون بل لا يرضون أن يتهمهم أحد بأنهم غير مسلمين. و لكن منهم من يحلو له أن يفهم الإسلام على هواه و يكره أن يذكره أحد بمستلزمات الإسلام، ليس فقط الامتثال لأوامر الله من صلاة و زكاة و التصرف في الحياة اليومية بسلوكيات أخلاقية على تقوى من الله، و لكن لا يحب أيضا من ينهاه عن المحرمات كشراب الخمر أو لعب الميسر أو التعامل بالربا أو اقتراف الزنى. و تجده في نفس الوقت لا زال يرجو رحمة ربه و يطعم في أن يغفر له، فيصوم رمضان و حتى يعتمر و يحج.

¹سورة الأنفال الآية 18

²سورة الأنبياء الآية 18

و لكن - و هذا هو المهم في موضوعنا - تجد أشد ما يخشاه نفس الغير المتدين من بين المسلمين هو أن يُصبح يوماً يعيش تحت نظام أو سلطة تُلزمه بالمعروف و تمنعه من المنكر و تحاسبه عليه. و الخصوم السياسيون للحركات الإسلامية يعلمون تواجد مثل هذا الخوف في المجتمع الإسلامي، فينتهزون كل فرصة تستنكر فيها الحركات الإسلامية منكرها في إعلامها، للتشهير بها و لوصفها بالقوة السياسية المتطرفة التي تنوي الوصول إلى الحكم لفرض الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بالقوة، على شاكلة ما يروج له الإعلام الغربي ضد حكم الطالبان بأفغانستان. و كل ذلك من أجل تخويف تلك الشريحة من المواطنين المتوجسة من تلك الحركات، فتسعى لتحويل توجهها إلى خوف من الإسلام نفسه جملة و تفصيلاً تحت يافطة "الإسلام المتطرف" في مقابل "الإسلام المعتدل" كالمسيحية بالغرب التي ينحصر نشاطها بالكنايس و تتسامح و تقبل بالواقع المنافي لتعاليمها في الحياة العامة.

الأثر العكسي مرة أخرى لهذا التخويف من الإسلام

فمثل هذا التخويف من "الإسلام الراديكالي" كما يسمونه، يأتي غالباً بالمفعول العكسي في العالم الإسلامي. فذلك التشهير بالحركة الإسلامية يثير حقا تخوف بعض غير المتدينين بالمجتمع الإسلامي، إلا أن غالب برامج الأحزاب الإسلامية ليس هو ما يروج له خصومها، بل القصد المعلن من مشاركتها في المجال السياسي هو تسيير الشأن العام بالأيدي النظيفة، و لا نية فيه أبداً لإكراه أحد على التدين. و هذا هو واقع الأمر الذي أثبتته التجربة ليس فقط بتركيا و لكن حتى باليمن حيث حكم حزب الإصلاح بمعوية حزب المؤتمر.

فالدين و التدين عند هذه الأحزاب الإسلامية يلتزم به السياسي و لا يُلزم به المحكوم. و هذا ما جعل الخوف و التخويف من دخول الحركات الإسلامية معترك السياسة يتبدد و يصبح مع مرور الزمن من دون أثر يذكر. ففي تركيا مثلاً، المصوتون على حزب العدالة و التنمية تجدهم من بين كل طبقات الشعب بغض النظر عن دياناتهم و عن التزامهم بتعاليمها. فالذي يجعل حتى الناخب العلماني يصوت لصالح حزب العدالة و التنمية بتركيا مثلاً هو استقامة و أمانة و كفاءة مرشحيه، بحيث جربهم و وجد أن بتدبيرهم للشأن العام يقل الفساد و تستقيم أمور الحياة اليومية للمواطن. لكن في غير تركيا - حيث يفهم الشعب التركي الضغوط الواقعة على الحزب الإسلامي الحاكم - تتدنى مصداقية الأحزاب الإسلامية التي شاركت في الحكم المحلي أو دخلت البرلمان أو حتى شاركت في الحكومة، لأن عدد من ناخبها و حتى المنتمين لها كانوا ينتظرون من وصولها للحكم إقامة ذلك المجتمع المسلم المثالي حيث يُؤمر بالمعروف و يُنهى عن المنكر بقوة السلطان. و لا يقنعون منها بحسن تدبير الشأن العام بمعوية قوى لا تساعد على ذلك بل تعرقله. فتحصل خيبة أمل هؤلاء الناخبين في تلك الأحزاب السياسية الإسلامية. فباحثناكها بالحكم إذن تتدنى مصداقيتها و تصبح مجرد رقم من بين باقي الأحزاب التي تُطبع مع تواجدها، فلا يبقى يخافها أحد أو يُخيف لا منها و لا من الإسلام أحد. بذلك ينتهي في المجتمع الإسلامي أيضاً التخويف و الخوف من الإسلام كظاهرة مرة أخرى، و يزولان بزوال مسبباتهما. فماذا الآن عن الأسباب العقديّة؟

الأسباب العقديّة

تحت عنوان "العداء للإسلام.. لماذا؟"، و في معرض كتابه، و بعد استعراضه وجهة نظر متخصصين غربيين، يقول محمد عمارة بأن الحملة الشرسة على الإسلام بشهادة الدراسات العلمية الغربية أساسها استياء الكنيسة من إفلاس المسيحية بالغرب نفسه من جهة و إفلاس العلمانية بالعالم الإسلامي أمام تنامي الرجوع الكثيف للدين فيه بين المسلمين. و سمّاهما بـ "إفلاس الدين الكنسي" بالغرب الحديث المعاصر و "إفلاس الدين الحدائثي" حيث فشل الغرب في عولمة علمانيته بالعالم الإسلامي، فأصبح الحديث فيه ديمغرافيا و ثقافيا و دينيا و اجتماعيا عن "موت الغرب" و "صحوة الإسلام" بحسب تعبيرات الكاتب نفسه¹. و حتى يصبغ الكاتب هنا على تعليقه الطابع العلمي و الموضوعي و حتى يدفع عنه فيه تهمة الانحياز بمقتضى خلفيته الإسلامية، نجده اضطر للاستشهاد في الموضوع بأقوال متخصصين غربيين. و هذا بالضبط ما أشرت إليه في المقدمة لتبرير تكرار استشهادي بالغربيين في موضوع هذا العرض. و عليه فسأتى، كلما أمكنتني ذلك بشهادات من الغربيين أنفسهم على تفشي ظاهرة الخوف من الإسلام بينهم. و وجدت في تأكيد الأسباب العقديّة من وراء هذا الخوف التي أشار إليها الدكتور محمد عمارة، شهادة بليغة من أكاديمي غربي سيأتي عرضها أسفله.

¹ محمد عمارة "الغرب و الإسلام... أين الخطأ و أين الصواب؟؟" ص : 13 و 14

فالإحساس الفعلي بالخوف من الإسلام والعمل على التخويف منه بالغرب على الخصوص، هو واقع كذلك و هذه المرة بسبب تضايق النخب التي لها خلفيات عقديّة مختلفة، فتخاف على نفسها أولا و على مجتمعاتها من انتشار هذا الدين الوافد، بسبب قوته الذاتية في الإقناع و الاقتناع من دون لا قوة مالية و لا قوة بشرية كهنوتية تدعمه. قوة الإسلام ذاتية و كامنة في تعاليمه العقدية و العملية و في نصوصه الثابتة. و يكفي أن تنتشر بين الناس فككتشف و تُعرف فتتهز أمامها باقي العقائد و تصبح هشة في وجدان معتنقيها.

و تحول الناس من دين إلى دين آخر لا بد من أن يزرع عقيدة أصحاب الدين الأصلي للمتحوّل للدين الجديد. فنحن المسلمون مثلا، لشدة اعتقادنا و بحق، بأن ديننا هو الصحيح، نقول دائما بأن المسلم الذي ينتصر مثلا، لا ينتصر عن قناعة و لكنه يفعل ذلك إما عن جهل بدينه و إما لمجرد أغراض مادية، لأنه بالنسبة لكل مسلم ليس في الدين المسيحي ما يعادل أو ينافس أو يغري بالتحول إليه. فلن يجد أي مسلم في المسيحية عن عيسى و عن والدته عليهما السلام أحسن مما جاء في حقهما في القرآن الكريم. و لهذا فننادا جدا ما نسمع بمسلم قد تنصر و لاسيما بالغرب نفسه حيث لا يخشى فيه من تنصر من إظهار دينه الجديد. فماذا عن تخوف الكنيسة و الملحدين بالغرب من انتشار الإسلام على أرضهم ليس فقط بين الشباب المسلم بل من بين نخب الغربيين أنفسهم، كالفيلسوف روجي كارودي و السفير الألماني سابقا مراد هوفمان، و غيرهم من هذه المستوى كثير.

محنة الكنيسة مع انتشار الإسلام على "أرضها"، و مصلحتها في التخويف منه

لما تحول إلى المسيحية مصري مسلم و صحفي بإيطاليا¹، كان الحدث نازرا جدا لدرجة أن البابا نفسه هو الذي عمده في حفل كبير، و أحضر له وسائل الإعلام. فتنفس المسيحيون بإيطاليا الصعداء، و على رأسهم الكنيسة نفسها لوجود أخيرا مسلم "متقف" ينتصر، و يعيد لهم ثقته بدينهم التي اهتزت بانتشار الإسلام من بينهم. فكانوا ينهالون على الصحفي المنتصر في محطة الإذاعة التي يشتغل، بسيل من الاستفسارات لعلهم يجدون في كلامه عن المسيحية ما جذبها إليها فيطمنون به على دينهم الذي يجد نفسه أمام دين إسلامي ينتشر على أرضهم بسرعة كبيرة و من دون تبشير. و لكن أجوبة الصحفي المنتصر على تلك الاستفسارات كانت على الدوام مجرد شتائم و سب و تشويه للدين الإسلامي و للعرب، من دون ذكر أية مزية و جدها في المسيحية. فخاب أمل المسيحيين المستفسرين له عن سبب تنصره لما تبين لهم من خلال أجوبته أنه مجرد منافق، تحول إلى النصرانية فقط كناية في الإسلام و و حقا على العرب و ليس لمزية ما وجدها في المسيحية.

و لكن في المقابل العدد الكبير من المتحولين إلى الإسلام من بين المسيحيين و الملحدين و لاسيما من بين نخب الغرب، يصدم بلا شك باقي المسيحيين و باقي الملحدين. و من جهة أخرى، مجرد تنامي تدين الشباب المسلم المتخرج من مدارس و جامعات الغرب، يُدخل الشك في معتقدات باقي الغربيين، الذين اعتادوا على سماع أن الدين الإسلامي دين التخلف و الرجعية و الظلمات. و الذي يهز أكثر معتقداتهم هو قوة و تنامي تدين الشابات المسلمات المتخرجات من نفس المدارس و من نفس الجامعات الغربية. فبالنظر لما تعود الغربيون على سماعه من اضطهاد الإسلام للمرأة و من تحقير لسانها، يجعلهم يتساءلون عن صحة ما كانوا يعتقدونه في هذا الدين، و يتساءلون أيضا و بألم قوي عن صحة و متانة معتقداتهم الشخصية من مسيحية و إلحاد.

و جاء ذلك بوضوح في كتاب إيمانيل طود² حيث يقول بأنه في عام 2006، قبل بضعة أشهر من الانتخابات الرئاسية، تعجب ماكس جالو³ من جرأته حين صاح قائلا: "كيف؟ نجرؤ على الإعلان بأن فرنسا العلمانية بلد مسيحي، في حين أن الدين الثاني في البلاد هو الإسلام، وهناك وفرة من الكنائس فارغة، في حين أن العدد القليل من المساجد مليئة لدرجة أن أتباع محمد يضطرون للصلاة وفي الشوارع، أو في أقبية أو في مستودعات؟". و أضاف الكاتب

¹ و يتعلق الأمر بالمسمى مجدي علام، و هو صحفي مصري المولد، و إيطالي الجنسية و مسلم سابق اعتنق المسيحية في 23 مارس 2008 و تم تعميده على يد بابا الفاتيكان، وكان ذلك بمناسبة عيد القيامة حسب الكنيسة الغربية. اشتهر بنقده للإسلام ومقالاته عن الثقافة الغربية وعلاقتها بالعالم الإسلامي و تأييده لشرعية وجود صهيوني بحسب موقع جريدة هآرتيس الصهيوني على اصفحتها التالية: <http://www.haaretz.com/hasen/pages/877090.html>. المصدر:

http://ar.wikipedia.org/wiki/علام_مجدي

² Emmanuel Todd est un politologue, démographe, historien, sociologue et essayiste français.

³ Max Gallo (من مواليد 7 يناير 1932 في نيس)، وهو كاتب ومؤرخ وسياسي فرنسي. وهو عضو في الأكاديمية الفرنسية منذ 31 مايو 2007، بالمقعد 24.

معلقا على هذا التعجب بقوله بأن قلق صاحبه يشير بوضوح، إلى العناء من الفراغ الروحي المسيحي الكاثوليكي، و أن هذا الفراغ الروحي المسيحي يعقبه الخوف من الإسلام¹.

و عليه فمختلف الكنائس مثلا أصبحت تخاف من تواتر تحول رعاياها إلى الإسلام على غرار ما كان عليه خوف قريش سدنة الشرك بمكة. و اليوم بفضل توفر كل وسائل النشر و التواصل الحديثة و بكل اللغات، تحقق للإسلام انتشار تعاليمه الحقيقية من طرف المسلمين بأنفسهم و ليس عبر المستشرقين المغرضين. و أمام هذا الفتح المبين في العالم كله، لم تعد تقوى و تصمد كل الأكاذيب و التشويهات التي كانت تروجّ ضده من طرف أولئك المستشرقين.

و لهذا نجد أن الكنيسة لا بد أن تكون بطبيعتها مستاءة من انتشار الإسلام في الغرب الذي تعتبره "موطنها" بل "مزرعتها الخاصة". و هي نفس الكنيسة التي سعت دائما و لا زالت تسعى بكل ما تملك من قوة و لكن من دون جدوى، لتنصير المسلمين في موطنهم حتى تعطي مصداقية لدينها أمام دين يستمد مصداقيته من نقاء و ثبات نصوصه الحقيقية فينتشر بها من دون كهنوت. و لهذا فإنها وجدت دائما سندا في كل الجهات التي تُخوف من هذا الدين الوافد للأسباب الخاصة بها، فتسكت عليه و لا تستنكره و بذلك تدعمه و تشجعه. و نعلم جميعا خروج البابا الحالي بندكت السادس عشر بهجومه على الإسلام في محاضرة بألمانيا، عمد فيها الى تشويه مفهوم الجهاد، مستشهدا بإمبراطور من القرن الرابع عشر، حيث قال على أن النبي محمد صلى الله عليه و سلم لم يأت إلى العالم إلا بأمور "شريرة و لا إنسانية".

و في هذا التصريح دليل واضح على محنة الكنيسة من جراء انتشار الإسلام على "أرضها" و ما هو إلا فيض من غيض طغى و خرج للعلن، بقصد دعم التخويف من الإسلام و المسلمين. و أعلن السكرتير الخاص لبابا الفاتيكان هذه الأيام، و بصراحة عن تخوف الكنيسة من انتشار الإسلام بأوروبا، حيث قال أنه يجب على أوروبا رفض "محاولات أسلمة" القارة الأوروبية. أما في أمريكا حيث تنشط المسيحية الصهيونية فهجوم الكنيسة على الإسلام معلن و من دون أدن حرج من طرف الكثير من القساوسة و على رأسهم القس Franklin Graham نجل بيلي كراهام، القس الإنجيلي والمستشار الديني في البنتاغون للرئيس السابق جورج بوش، و الذي صرح بمناسبة عيد الفصح بأن الإسلام دين الشياطين و حرض على ضرب الكعبة المشرفة عشية أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001.

و نفس الشيء بالنسبة لكل المؤسسات الكهنوتية، لأنها لم تعد تستطيع تشويه الإسلام لا في السر و لا في العلن، لدخوله عبر شاشات الفضائيات لكل بيت من دون استئذان. فكم من عربي غير مسلم أو مسلم على غير مذهب أهل السنة و الجماعة، يستطيع مقاومة مشاهدة برنامج "الشريعة و الحياة" مثلا على قناة الجزيرة، و يتبين من حقيقة الإسلام كما جاء به رسول الرحمة صلى الله عليه و سلم، فيقارنها بما كان يسمع عنه من كهنوته و بما يعرف عن حقيقة دينه أو مذهبه، و لا سيما عن المسيح عليه السلام و عن أمه بالنسبة للمسيحيين، و عن كل الصحابة رضوان الله عليهم بالنسبة للشيعية. و الأصل في جل مسلمي الشام و مصر أنهم أحفاد مسيحيين أسلموا قديما و عن طواعية و اقتناع، بدليل بقاء غيرهم ممن لم يسلم أبواهم أحرارا في ظل تاريخ كل الإسلام و حتى اليوم. و لهذا لا غرابة في وجود كنائس تستأنس بالتخويف من الإسلام ألم تشجعه و تساهم فيه.

محنة الملحدين بالغرب مع احتكاكهم بالدين الإسلامي و مع انتشاره تحت أعينهم.

يقول إيمانيل طود في هذا الصدد و في نفس الكتاب، بأنه في بلد مثل فرنسا، كان لوجود كنيسة كاثوليكية مهملة من طرف الأغلبية بالرغم من أهميتها الاجتماعية، يعطي معنى للإلحاد، أو بعبارة ملطفة كان يعطي للعلمانية أحقيتها شرعيتها لغياب من يناقسه. و لكن اختفاء هذا المنطلق دمر كل التنظيم الفكري الفرنسي². و لا شك أن الذي يعنيه

¹ Emmanuel Todd, « Après la démocratie », Gallimard, Paris, 2008. p.36

النص الأصلي من نفس المصدر:

En 2006, quelques mois avant l'élection présidentielle, Gallo s'émerveillait de sa propre audace : « Quoi? Oser proclamer que la France laïque est un pays chrétien, alors que la deuxième religion du pays est l'islam et qu'il y a profusion d'églises vides, alors que les rares mosquées sont si pleines que les fidèles de Mahomet sont contraints de prier sur les trottoirs, dans des caves ou des hangars? ». Mais le sens de son angoisse est clair, le vide religieux chrétien catholique. Le vide religieux chrétien précède l'islamophobie.

² Emmanuel Todd, « Après la démocratie », Gallimard, Paris, 2008. p.39

بالمنطلق الذي اختفى هو ضعف الكنيسة الذي كان يعطي للإلحاد مصداقية، و لما ظهر الإسلام بقوته انتزعها منه لصالحه فأربك و زرع الإلحاد في أنفسهم. بعبارة أخرى، كان الملحدون بالغرب مرتاحين في إلحادهم مع الدين المسيحي المهمل من طرف جل معتقيه، فمن ذلك كان يستمد مصداقيته في نفوس الملحدين. و لكن ظهور الإسلام بهذه القوة مع تدين شباب مسلم مثقف و مع تحول غربيين متميزين إليه، زرع الثقة التي كانت عندهم في عقيدتهم و التي استمدت قوته و لعقود من كنيسة مهملة و غير مقنعة. و هذا الإزعاج الذي أحدثه الإسلام في نفوس الملحدين تحول عند بعضهم كما يقول الكاتب إيمانويل طود إلى "إسلام فوبيا" بمعنى **عداء مرضي ضد الإسلام**، لأنه أخرجهم من طمأنينة كانوا يتمتعون بها في إلحادهم. فانتقلوا بحسب أقول نفس الكاتب من علمانيين متسامحين مع مسيحية مهملة و لا ترعجهم بل بضعفها كانت تقوي و تؤكد صحة إلحادهم، تحولوا إلى معادين للدين كلية و للإسلام خاصة لأنه جاء بهذه الصورة الغير متوقعة فزرع اعتقادهم في صحة الإلحاد و ذهب بالطمأنينة التي كانت لهم فيه من دون وجود الإسلام من بينهم.

و يستطرد إيمانويل طود مؤكدا لهذا التحليل بقوله أنه لا مفر من هذا الواقع الجديد، الذي فيه و بفرنسا، حيث الممارسة الدينية الكاثوليكية لم تعد ذات أهمية اجتماعية، تحولت العلمانية المتسامحة مع الدين إلى علمانية متطرفة ضد الدين. و يضيف بأنه تحالف في العداء ضد الإسلام ملاحدة العلمانية القديمة مع الخارجين للتو من الكاثوليكية المتوقفة في آخر محطة لها. فأصبح الإسلام بذلك هو كبش الفداء و العدو الذي لا غنى عنه¹. و أكد الكاتب أن سر هذه المحنة كامن في المعاناة من سوء الشعور بالفراغ الروحي الذي أوقده و قض مضجعه في نفوس الملحدين انتشار الإسلام. فقال بأنه في أوروبا مع بداية الألفية الثالثة، أصبح الإسلام الضحية المقدمة كقربان لسوء حالنا الميتافيزيقي (يعني بذلك و بلا شك الحال الروحي)، و لصعوبة عيشنا من دون الاعتقاد في وجود إله، في نفس الحين الذي ندعي فيه و نصيح و نصر بأن حدثنا هي وحدها السبيل الصحيح². هذا النص يشير بوضوح تام إلى صراع نفسي في ذات الملحد بين فطرته التي تدعو للإسلام حيث المصداقية و هواه الذي يشده للإلحاد الذي فقد تلك المصداقية.

ففي أقوال هذا الكاتب ما يكفي للتدليل على أسباب الخوف و التخويف من الإسلام من طرف الملحدين الذي تحولوا إلى العلمانية المتطرفة ضد الدين الإسلامي بالضبط، بسبب ما أحدثه هذا الدين في نفوسهم من زعزعة لمعتقداتهم و لما جعلهم به يعانون من فراغ روحي مع تشبثهم بما يسمونه بالحدثة التي تلغي وجود أي إله و فطرتهم التي بوجود الإسلام تميل إلى العكس تماما. و تسبب هذا الصراع النفسي عندهم في الشعور بالخوف من الإسلام خصوصا في فرنسا التي تحولت منذ ثورة 1789 إلى أرض و ملاذ للإلحاد بامتياز.

و مما يزكي ذلك الاعتقاد عندنا من أن الخوف من الإسلام عند الملحدين هو بسبب محنة و صراع نفسي مع فطرتهم بعد اكتشافهم للإسلام على حقيقته، هو ما يكتبونه عن هذا الدين بكل الوسائل و بكل اللغات بعد اطلاعهم عليه و بعمق و بشغف. فبالاطلاع على كتاباتهم عن الإسلام تجدهم بالمطالعة و البحث يعرفون عنه من كل مصادر علومه المترجمة بحمد الله إلى مختلف لغاتهم ما لا يعرفه عنه حتى جل المسلمين أنفسهم. و لو أنهم شعروا و تيقنوا بعقولهم و بفطرتهم بأن الإسلام مجرد خرافة كما عهدوا ذلك من باقي الديانات، لما ألقوا إليه بالا و لأهملوه و لاستراحوا منه، و لما وجدوا أنفسهم يجتهدون في النبش فيه حتى الأعماق كل بحسب ما علم الله في قلبه. فمن بقلبه خير تجده يبحث فيه عن مخرج من أزمتة الروحية، و تجد كل جهد غيره منهم، منصب على إيجاد الشبهات فيه بقصد تشويبه في نفسه أو لا قبل التشهير به عند غيره.

Dans un pays comme la France, la présence d'une Eglise catholique minoritaire mais socialement importante donnait un sens à l'incroyance, à l'athéisme, ou comme on dit pudiquement, à l'affirmation laïque. La disparition de ce point de repère a détruit l'ensemble de l'organisation idéologique de la France.

¹ النص الأصلي من نفس المصدر:

Mais rien n'y fait. Dans cette France où la pratique religieuse catholique est désormais sans importance sociale, la laïcité devient laïcisme, et réunit dans une hostilité commune à un Islam fantasmé les incroyants venus de la vieille laïcité républicaine et ceux qui viennent de sortir du catholicisme terminal. L'Islam prend le statut de bouc émissaire, d'ennemi indispensable.

² النص الأصلي من نفس المصدر: *- Dans l'Europe du début du troisième millénaire, il devient la victime sacrificielle de notre mal-être métaphysique, de notre difficulté à vivre, sans Dieu, tout en clamant que notre modernité est la seule possible, la seule valable.*

فكما أشار إلى ذلك إيمانويل طود في كتابه و سبق ذكره، الملحد يقع باحتكاكه بالإسلام في صراع مع فطرته أكثر مما هو في صراع ضد المسلمين، إلا أنه يعاديهم كما قال ككبش فداء لأنهم بتدنيهم يذكرونه بالدين الذي يخلق له مشكلة مع هواه ضد فطرته. و يمكن التأكد من هذا الصراع الداخلي عند الملحدين و غيرهم من خلال و السؤال الذي يطرح نفسه "لماذا كل هذا الاهتمام منهم بالإسلام من دون غيره؟". الجواب بسيط مرة أخرى و هو أنهم لو تيقنوا من أنه مجرد خرافة كما يعتقدون في باقي الأديان لما التفتوا إليه و لما اهتموا به و لأهملوه كما أهملوا باقي الأديان و المعتقدات، لأنها في عقولهم هي مجرد خرافات لا تحرك فطرتهم. و لو تيقنوا بأن الإسلام مجرد خرافة لشجعونا على التثبت به، لأنه لا حسد عندهم ضدنا فيما كل ما لا نفع فيه لنا، بل "شدة حبهم لنا؟؟" فمنهم من يتمنى لنا كل ما من شأنه الزيادة في تأخرنا و تخلفنا و لا يناقشوننا فيه. فهذا تجددهم يجلون و يشجعون كل الفرق الضالة من بيننا كالأحباش و الأحمدية، أما الإسلام الحقيقي الذي فيه خلاصنا و خلاص كل إنسان و يميز المسلمين عن غيرهم، يزعجهم و يخافون منه و يخوفون منه.

محنة الغربيين مع تنامي نموذج المرأة المسلمة المتدينة

يقول كلود أمبير¹ في مقابلة له مع قناة LCI، بأنه نوعا ما معادي للإسلام، مع قبوله له كممارسة هادئة للدين. و لكنه يطالب لنفسه بالحق في الاعتقاد بأن الإسلام كدين يأتي بتفاهات بدائية و بالية و متعددة. يأتي بطريقة للنظر إلى المرأة تحط باستمرار من قدرها و من قيمتها، علاوة على استهدافه لقانون الدولة من أجل بتعويضه بشريعة القرآن، الشيء الذي يجعله في الواقع و كما يقول معاديا للإسلام². و أهم ما جاء في تصريحه هذا، هو أن الإسلام لا يعنيه كممارسة هادئة، لولا أنه يزعجه بإظهاره بشكل سافر و مستفز له، لنموذج المرأة المسلمة المتدينة، بزيتها الإسلامي في الشارع أوروبا. و حديثه و حديث أمثاله عن الغيرة على المرأة المسلمة التي "يحط الإسلام من قدرها" بزعمه، هو مجرد نفاق لا ينطلي على كل ذي بصيص من الذكاء، لأنه لو كان صادقا في ادعائه هو و أمثاله لانتفض في مجلته و في غيرها و على الدوام، منددا بسوء حال المرأة بفلسطين و بالعراق و بأفغانستان اللاتي يعانين من شدة وطأة الاحتلال عليهن و على أبنائهن و على آبائهن و إخوانهن و على أزواجهن. السبب في حقه إذن على الإسلام، لا علاقة له البتة بكرامة و حقوق المرأة المسلمة، و لكن سببه هو فقط جرأته على تقديم نموذج للمرأة مناقض تماما لما يعتز به من نموذج للمرأة الغربية المتحررة من كل القيود الدينية و الأخلاقية، و الذي أصبح عالميا و رمز و مظهر من مظاهر تقدم و تفوق ثقافة الغرب على ثقافات باقي شعوب الأرض.

فكل هذه القوى الملحدة بالخصوص، و المنظمة في جمعيات تنادي بحماية العلمانية *la laïcité* كلما فتحت مواقعها على الشبكة لا بد أن تجد فيها الهجوم على الإسلام بقصد التخويف منه، و كأن من يريد أن يكون ملحدا يكفي ذلك أن يعادي الإسلام. و تفجرت تلك القوى غضبا و شططا ضد الإسلام و المسلمين بفرنسا على الخصوص، لما ظهر لأول مرة ارتداء الفتيات المسلمات للحجاب بهذا البلد، لأنه يرمز عندهم و عند غيرهم من الغربيين لنموذج المرأة الجديد الذي يشعرون فيه بتحقيق نموذج المرأة الغربية الذي يفتخرون به و يتحولوا إلى نموذج عالمي، من حيث كل النساء في العالم مبهورات به و يتشبهن ما استطعن به. فأزعجهن نموذج المرأة المسلمة المتدينة التي تغرد خارج السرب و تعزز بمظهرها الإسلامي المناقض تماما لمظهر و سلوك المرأة الغربية. فوجد فيه أمثال كلود إيمبير و غيرهم تحديا مستقرا لثقافة غربية أصبحت عالمية. و الذي زاد في شعورهم بهذا الاستفزاز هو كنه صادر عن مسلمة متدينات طال ما كان الغربيون يضعونها في أسفل درجات سلم التطور و التقدم.

فجاء هذا النموذج للمرأة و الفتاة المسلمة المتدينة ليظهر كالنموذج البديل الذي تظهر فيه المرأة معززة و مكرمة بخلاف النموذج الغربي المبتذل الذي شينها و أرادها أبعد ما يمكن عن مؤسسة الزواج، حتى لا ينفرد بالمتعة بها في ريعان شبابها و فتوة جسدها رجل واحد و هو الزوج. و أراد لها أن تعمل خارج البيت لا لخدمة المجتمع كما يدعون

¹ Claude Imbert ولد في 1929 و هو صحافي فرنسية، و مؤسس مجلة لوبوان Le Point فكان مدير تحريرها ثم مديرها العام، ولا يزال يكتب افتتاحية هذه المجلة الأسبوعية.

² النص الأصلي من نفس الأسبوعية: « Moi, je suis un peu islamophobe. [...] Nous avons le droit de combattre le racisme, d'accepter une pratique paisible de l'islam. Et j'ai le droit, je ne suis pas le seul dans ce pays à penser que l'islam - je dis bien l'islam, je ne parle même pas des islamistes - en tant que religion apporte une débilité d'archaïsmes divers, apporte une manière de considérer la femme, de déclasser régulièrement la femme [et] en plus un souci de supplanter la loi des États par la loi du Coran, qui en effet me rend islamophobe ».

بقدر ما تكون في متناولهم، بدلا من أن تبقى خدماتها حكرة على بيتها و على أولادها. فأرادها في عز شبابها مشاعة بين من تريد من كل الرجال من دون قيد و لا شرط و بعيدة كل البعد عن أية قيم دينية أو أخلاقية تمنع من شيوع التمتع بها.

و شعار العريبد من الملحددين في الحياة، هو إشباع شهواته، و المعبود فيها عنده هو ثالوث "المال و الخمر و النساء". فهكذا في عقيدته المرأة مجرد شيء للمتعة تماما كالمال و الخمر. و من تم أضحت مجرد سلعة للإيجار في الدعارة التي تعتبر عندهم أقدم حرفة في حياة البشرية *le métier le plus ancien du monde* هكذا. و في هولندا و ألمانيا و دول أخرى بشمال أوروبا، الدعارة حرفة معترف بها و منظمة قانونيا و تدفع عنها بائعة الهوى عندهم الضريبة على الدخل. أما في بلجيكا و هولندا فتوجد حتى اليوم مواخير للدعارة في أزقة خاصة و غالبا ما تكون محاذية لمحطات القطار و الموانئ، تجلس في واجهتها *vitrine*، بائعة الهوى شبه عارية، مثلها مثل أية سلعة معروضة للبيع بمتجر للملابس أو غيره. و استخدمت المرأة برغبة منها في التجارة كأداة و كطعم للإغراء بشراء السلع ، من أجل الترويج لكل المنتجات و تسويقها.

و لما ظهر نموذج المرأة المسلمة المتدينة و المستورة و المناقض تماما للنموذج الذي بناه الغربيون لعقود و استأنسوا به و افتخروا بشيوعه في العالم، أثار حفيظتهم و رأوا فيه تهديدا لمنظ عيش تعودوا على العبث فيه بالفتيات و بالنساء، فعادوه و خافوا من الدين الذي يؤيده. فارتأوا التخويف منه بكل الوسائل حتى ينفروا منه. و لكن كل جهودهم ليس فقط بآبت بالفشل بل زادت من انتشار ارتداء الحجاب بالغرب بفخر و اعتزاز، حتى أصبح واقعا طبعوا معه في أول المر كارهين ثم أصبحوا متعودين عليه كرمز للوقار و لكرامة المرأة المسلمة من بينهم.

و لهذا الموقف من المرأة المسلمة بفرنسا بالذات، و منها لباقي العالم الغربي على الخصوص، خلفية تاريخية و ثقافية. فمنذ الثورة الفرنسية ضد الملكية و الكنيسة معا، تعاقب الملاحدة العلمانيون لعقود طويلة على ترسيخ ذلك النموذج للمرأة " المتقدمة" *émancipée* بزعمهم. بمعنى أنها أصبحت متحررة من كل القيود الأخلاقية و الدينية التي كانت يمنع شيوع الاستمتاع بها. فشاع شعار "جسد المرأة ملك لها تفعل به ما تشاء" من دون الحق لأحد في محاسبتها و منازعتها في الحق من أية جهة كانت دينية أو أخلاقية. و هي ضحية لتأييد هذا الشعار من حيث لا تدري، لأنها حين تكبر و تذبل مفاتها يتم رميها كما يرمى المنديل من الورق في سلة المهملات بعد مسح اليدين به. و من تبعات هذه الحرية ظاهرة "الأمهات العازبات" اللواتي ينجبن أولادا مع من أحبين بقصد و من دون رابط زواج، إلى درجة أن أولادها لا يعرفون من هو أبوهم ، و تعتبر أهم سؤالهم عنه تدخلا في حياتها الخاصة فلا يجرؤون على ذلك. و عمل الغربيون بكل الوسائل على التطبيع مع هذا النموذج المبتذل للمرأة و تم ترسيخه بصفة نهائية بعد ثورة مايو 1968 بفرنسا، التي جاءت للتخطيم ما تبقى من القيم النبيلة في المجتمع الغربي و بباقي العالم حتى بالعالم الإسلامي من خلال العولمة و حتى قبلها (قاسم أمين نموذجا).

و من النساء ضحايا هذا النموذج النساء "المناضلات" بجمعيات تُدعى جمعيات *les féministes*. فهن الأشد تشبها بهذا النموذج المبتذل للمرأة تحت ضغط شهواتهن، ليس فقط في الغرب و لكن أيضا بكل العالم و منه العالم الإسلامي. فتجدهن متعاونات في جمعيات و منظمات عابرة للقارات و تجدهن في مقدمة من يهاجمن أي نموذج مغاير و أي دين يؤيده. و في فرنسا بالذات أسس نساء معاديات لنموذج المرأة المسلمة المتدينة جمعية تحت عنوان "*putes ni soumise*" أي "ى عاهرات و لا خانات" فيه دفع لتهمة إحساسهن بالابتدال الأخلاقي من دون الخضوع لدين يقيد حريتهن. الأمر عنهن نابع من محنة نفسية أخلاقية كذلك، بقدر ما هو محنة نفسية للملحددين من شعورهم بالفراغ الروحي أمام إسلاما يتحدى إحادهم. و بارتداء أول الفتيات المسلمات للحجاب بفرنسا أصبح الإسلام هو العدو المهدد لما يعتبرونه من أقدس "مكتسبات" المرأة، و المتمثل في أن تتصرف بجسدها كيف يحلو لها من دون حسيب و لا رقيب. فهن كذلك يخفن من الإسلام و يسعين لتعميم هذا الخوف من حولهن فيساهممن في التخويف منه مع باقي القوى المعادية له.

الاعتماد في الدعاية ضد الإسلام على كتابات الاستشراق المغرض و أمثالهم من المسلمين

و للتنفير من الإسلام الحامل للنموذج النقيض للعقائد و للسلوكيات السائدة بالغرب ، عاد المناوئون له لينبشوا من جديد في كل ما سبق أن كتبه المستشرقون المغرضون، و بانتقاء مقصود من القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف و

سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليخرجوه من سياقه فيؤولونه على هواهم بقصد التشهير بالإسلام و بالمسلمين. و يعمل عتاة العلمانية على الاقتباس من كتب هؤلاء المستشرقين و إعادة نشرها من أجل التنفير من هذا الدين و بغرض التخويف منه. فكتبت الكتب المعادية له و أحدثت المواقع الإلكترونية لنفس الغرض، و تجند الإعلام الغربي للحملة ضد الإسلام باستدعاء كل أعدائه من دون غيرهم، من الغربيين و بالخصوص من بني جلدتنا نساء و رجالا حتى يتكلموا فيه بما يحلو لهم، و بتوسع و بتحليلات مستقيضة ضده، ليبرهنوا لمن يسمع لهم على صدقية "تحلف" و "وحشية" تعاليم هذا الدين حتى بشهادة من أهله.

و أكثر من ذلك فقد كتبوا ضد الإسلام بإسم مسلمين ناشزين و نشروا بإسمهم كتبا و منشورت تدين الإسلام و تشوه تعاليمه، و حموهم و قدموا لهم الجوائز و اعتبروهم أبطال في الشجاعة و الإقدام، و أشهر هؤلاء الصومالية تسليمة نيسرين التي أصبحت حتى عضوة بالبرلمان الهولندي، و سلمان رشدي صاحب كتاب "آيات شيطانية" المكتوب من غيره و المنشور بإسمه لأنه ما سبق له أن عرف لا بالكتابة و لا بالنشر و لا هو من أهل الكتابة و الأدب قبل و بعد هذا "الكتاب" الوحيد المنسوب له.

و كان الغرض من ذلك مزدوج، التخويف من الإسلام من جهة، و استفزاز المسلمين و إثار ردود فعلهم العنيفة ثم استغلال تلك الردود لتأكيد ما سبق لهم أن وصوفهم به من عنف و كراهية لغيرهم و لاسيما للغربيين من دون غيرهم. و كان ذلك الغرض المزدوج قد تحقق كل مرة مع فيلم فان كوك الهولندي الذي اغتاله شاب مسلم، و مع سلمان رشدي الذي صدرت في حقه فتوى هدر دمه من الخميني، و بالأخص مع نشر الصور المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم، و التي تعاقبت على نشرها مجلات فرنسية من بعد الصحيفة الدانمركية، لفأثارت حفيظة المسلمين بفرنسا و رفعوا دعوات ضد الناشرين لتلك الكاركاتورات و لكنها وجدت مع الأسف الشديد عضدا في القضاء الفرنسي الذي برأها من تهمة الإساءة للإسلام و المسلمين باسم حرية التعبير و عدم قدسية الأديان و لا سيما الدين الإسلامي. فبقدر ما كانت ردود أفعال المسلمين مشروعة كانت في نفس الوقت تزيد من مخاوف الغربيين من الإسلام من بين الذين انطلت عليهم دعاية و حيل خصوم هذا الدين و خصوم أتباعه.

رد الفعل المضاد لهذه الحملة للتخويف من الإسلام

و لكن عن هذه الحملة الشرسة للتخويف من الإسلام و المسلمين بالتحالف بين كل القوى المناهضة لهذا الدين، نتجت حملة مضادة هذه المرة من الشباب المسلم بالخارج من بين الطلبة و بالخصوص من بين الجيل الثاني و الثالث من أبناء و بنات المهاجرين الذين ولدوا في الغرب و تعلموا في مدارسهم و نشأوا في بيئته. فحتى من كان منهم غير متدين كان يعرف من خلال أسرته و مجتمعه الأصلي أن المنشور و المكتوب من تشهير بدينهم هو محض كذب و بهتان. فاجتهدوا في التعرف عليه بالدراسة العلمية، و من خلال مختلف الدعاة و العلماء الذين يتقنون اللغات الأجنبية كطارق رمضان مثلا بالنسبة للفرنكفونيين، فكانت عودة قوية و مباركة للشباب المسلم بالغرب إناثا و ذكورا ليس فقط للتشبث بدينهم بل بنشر تعاليمه الحقيقية على أوسع نطاق و للدفاع بأسلوب الند للند بكل الوسائل المتاحة. فازداد ارتداء الحجاب انتشارا من بعد ما كان محدودا في بعض الفتيات، و كل ذلك مصداقا لقوله تعالى { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ }¹.

و لم أستطع هنا مقاومة سرد أحداث مقابلة على قناة TV5 الفضائية بين فتاة مسلمة محتجة من جهة و Elisabeth Badinter إحدى أشد عداء الإسلام من جهة ثانية، سألت فيها هذه الأخيرة الفتاة المسلمة عن سبب ارتدائها للحجاب، فردت عليها للتو تلك الفتاة قائلة ما معناه "من تكوني أنت في هذه البلاد و بأي حق فيها تنكري علي بسؤالك ارتداء ما أريد؟ فأنت فرنسية و أنا فرنسية مثلك، و لكل منا نفس الحقوق و نفس الوجبات، و أنا الفرنسية بالتجنيس أحترم مبادئ الجمهورية التي تدعين الدفاع عنها. فأنا مثلا لا يعجبني كشف فتاة عن صدرها و لاسيما من عجوز في سنك، فلا أنكر عليك ذلك احتراما للحرية التي تتشددقين بها. و لكن بسؤالك و بتدخلك في حريتي و في حياتي الخاصة، أنت الفرنسية أصلا، تستحقين مني هنا دروسا، أنا الفرنسية بالتجنيس، عن قيم الجمهورية. و لم تعطيتها فرصة لترد، فالتفتت إلى مسير البرنامج، و كان البث على الهواء مباشرة، فقالت له ما معناه "بمثل هذه البرامج في هذه

سورة آل عمران الآية 173 و 174¹

البلاد تفتحون ضد المسلمين محاكم تفتيش جديدة في تناقض سافر مع قيم هذه الجمهورية التي يحلو لكم تعريفها بـ "أرض الحرية بامتياز". فقطت غرضها من البرنامج و بعثت برسالة قوية لباقي الشباب من المسلمين حتى يواجهوا الظلم الذي يطالهم بنفس القيم التي تنادي بها جمهوريتهم. و صار الكلام في البرنامج من بعد تدخلها مجرد لغط لم تكلف تلك الفتاة نفسها مزيدا من الرد عليه. فزاد بذلك الملحدون غيضا و كرها للمسلمين و للإسلام ، فانبرى السياسيون الانتهازيون باستغلال الظرف و أخرجوا قانون منع الحجاب بالمؤسسات التعليمية المشؤم، تحت طائل التهديد بالمنع من الدراسة.

الآثار العكسية لصالح الإسلام و المسلمين

فازداد من جراء هذا التخويف من الإسلام فضول غير المسلمين في الاطلاع على تعاليمه الحقيقية، حتى أن من لم يسلم منهم أصبح على الأقل يُكن لهذا الدين و لمعتنقيه الاحترام اللازم. و مع مرور الزمن باءت كل محاولات التخويف منه بالفشل. فتعود الغربيون على مجيء رمضان فأصبحوا يقدرون الصائمين و اعتادوا على رؤية مناسك الحج عبر الفضائيات بنفس التقدير و الاحترام و كذلك الإقبال المنتظم للمسلمين على المساجد. و ركب السياسيون هذه المرة الموجة، كانتهازيين بامتياز، ليتسابقوا في الدفاع عن حقوق المسلمين لما أصبحوا قوة فاعلة سياسيا من حيث انتشر الوعي بينهم بالانخراط في المجال السياسي بعد نيلهم حق الترشيح و الانتخاب. فأصبحوا يتحدثون عن الإسلام بوصفه الدين الثاني بفرنسا من بعد المسيحية. و أنشأ المسلمون مجالس تمثلهم في التحوار و الحوار مع السلطات المحلية و المركزية، على غرار مجالس اليهود و النصارى. و أصبحت كلمة "إسلموفوبيا" قذحية و رادعة لأعداء المسلمين على غرار "معاداة السامية" بالنسبة لليهود. و لجئنا أهل بالغرب نستفسرهم عن أحوالهم فيخبروننا بأنهم يعيشون بصفة طبيعية كغيرهم من المواطنين الأصليين و لا يحسون بأي تمييز ضدهم. و مع توالي باقي الأحداث العالمية التي اتضح ظلمها للمسلمين تدنت الحملات الإعلامية الهجومية ضدهم و ضد الإسلام، فيما عدى ما تبقى من الإجراءات الأمنية التي تطالهم بالخصوص بكل حدود الدول الغربية من دون غيرهم.

و هكذا كان "التخويف من الإسلام" بالسبب العقدي هذه المرة مجرد ظاهرة كذلك، اختفت كسابقاتها باختفاء و اندحار مسبباتها أمام قوة الحق الذي هو صلب هذا الدين، فانقلبت عزة و نصرة و تأييدا له بفضل من الله، مصداقا لقوله تعالى { أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ }¹ و قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ }²

الأسباب العنصرية للخوف و التخويف من الإسلام

استعملت كلمة "عنصرية" هنا فقط لتقريب نوعية هذا السبب الرابع للتخويف من الإسلام. فالعنصرية تعاريف تتم عن معتقدات العنصريين الغير الموائمة لمعتقدات المسلم، و منها مثلا :

- في معجم المحيط : **لِعَنْصَرِيَّةٍ** هي مذهب المتعصبين لعنصرهم، أي جنسهم أو لمذهب التمييز العنصري،
- في معجم الغني : **العَنْصَرِيَّةُ** - (مصدر صِنَاعِيٌّ) و هي مَدَهَبٌ قَائِمٌ عَلَى التَّفْرِيقَةِ بَيْنَ الْبَشَرِ بِحَسَبِ أَصُولِهِمُ الْجِنْسِيَّةِ وَكُوْنِهِمْ.

و نحن المسلمون بعقيدتنا لا نؤمن بأن البشرية تنحدر من أصول مختلفة، حيث قال رسول الله صلى الله عليه و سلم "كلكم من آدم و آدم من تراب". و قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }³ و عليه فأصل كل الناس بمختلف ألوانهم و مختلف هياتهم و

سورة الرعد الآية 14¹

سورة الأنفال الآية 36²

سورة الجرات الآية 18³

صورهم، هو من أصل واحد. فلا معنى إذن في العقيدة الإسلامية لعبارة "العنصر البشري"، التي تعني أنه من أصل يختلف عن أصول غيره من البشر.

إلا أن كل الناس تقريبا في أنفسهم نزعة للتمييز بين الشعوب و حتى بين فئات الشعب الواحد، ليس فقط على أساس اختلاف ألوان البشرة و اختلاف الهياك و الصور بمختلف بقاع الأرض، و لكن على أساس الفئة الاجتماعية، كالتمييز بين الفقراء و الأغنياء و بين المتعلمين و الأميين و بين القرويين و الحضريين و بين البيض و باقي الملونين. و كثيرا ما تبقى هذه النزعات للتمييز بين الناس على مختلف هذه الأسس خفية في نفس الإنسان منهم من يقاومها لسبب عقدي أو أخلاقي و منهم من يتبناها و حتى يعتز بها، و لكنها إن كانت خفية فسرعان ما تطفو بقوة على السطح و من دون استئذان عند ساعة الغضب و خصوصا عند الزواج. و جاء في الأثر قصة أبي ذر الغفاري رضي الله عنه الذي عير بلال رضي الله عنه بلون أمه في حالة غضب فقال له "حتى يا ابن السوداء تخطنني"، و بلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم فعاتب عليها أبا ذر و سماها: "جاهلية" لأنها من مخلفات الجاهلية. و في الزواج لنا جاء في الأثر كذلك قصة نفور زين بنت جحش رضي الله عنها من زوجها زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم، بسبب اختلاف الفئة الاجتماعية في المجتمع المسلم نفسه. فمن هذه القصص بين الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم المتخرجين من مدرسة النبوة الشريفة، نستنتج أن النزعة لمثل هذا التمييز بين الناس على مختلف الأسس، تكاد تكون شبه طبيعية و دفيئة في نفس كل إنسان قاومها من قاومها و طاوعها من طاوعها و تطفو في مناسبات قليلة و تظل خفية في باقي الأوقات.

و في كل بلد نجد في نفوس الناس نوعين من العنصرية الدفيئة و حتى السافرة إما ضد أو لصالح الأجانب الوافدين على بلادهم.. فالعنصرية تكون ضد الوافد من منطقة يقل قدرها في نفسية المواطن عن مرتبة بلده في نفسه، و نجد في المقابل عنصرية نفس المواطن ضد نفسه أمام الأجانب القادمين من مناطق أعلى قدرا من بلده، بغض النظر عن مركزهم الاجتماعي في موطنهم. فنجد في المغرب مثلا نوع من العنصرية ضد الأفارقة مهما كان مركزهم في بلدانهم. و نجد الفرنسي مثلا، يتصاغر أمام أي أمريكي مهما كان قدره الاجتماعي متواضعا ببلده كالأمريكي الأسود مثلا. فهذا إذن ليس فقط تحصيل حاصل عندنا نحن أهل البلدان النامية بل حقيقة في شأن الغربيين الأوروبيين أنفسهم. فعلى سبيل المثال يكتفون بل و حتى كل الأوروبيين الاحترام و التقدير للأمريكيين الشماليين و لليابانيين مهما كان قدرهم في بلدانهم، و يصل بهم هذا التقدير أحيانا إلى درجة الانبطاح و التذلل أمامهم. و المسلمون بما أنهم كلهم أو جلهم شوقيون و افدون إما من آسيا أو إفريقيا – قارتين معروفتين في وجدان الغربيين بالفقر و الأمية و التخلف – و متميزون عن الغربيين ببشرة غير بيضاء و بصور و هياكل "خاصة" يتصورهم من خلالها عامة البيض بكل بقاع العالم أنهم منحدرين من أصل و عرق متخلف و أقل تطورا من عرقهم. بذلك يجمع المسلمون ضدهم في وجدان الغربيين كل أسباب التمييز ضدهم الخفي و السافر، و من المسلمين من بانبطاحه أمامه يزكي "عنصريتهم" ضده.

و في الفصل الأول من كتابه "الإسلام و أوروبا، تعايش أم مواجهة؟"¹ خصص الكاتب السويدي أنكار كارلسون² الفصل الأول كله لذكر لائحة طويلة من كتابات و دعاية مشوهة للعرب ببلاد السويد و بالولايات المتحدة تكيل لهم الشتائم و السب و تصورهم برسوم كاريكاتورية على أنهم بدو فقراء و جهلة بطبيعتهم أو أثرياء سفلة لا يهم إلا البحث عن إشباع شهواته الهابطة بالأموال التي يجنونها من مداخيل بحر من النفط بالصحراء تحت أقدامهم. و يذكر أن هذا التحقير لهم كان ليس من فعل الكتاب و الصحفيين و الساسة فقط، بل حتى من طرف الدوائر الرسمية كالمكتب الفدرالي للتحقيقات FBI، و من دون أن تجد من يستنكرها أو يرد عليها. و يندد الكاتب بذلك قائلا لو أنه قيل جزء من الألف من تلك الشتائم ضد اليهود لقامت الدنيا و لم تقع، و لنال مرتكبو تلك الجرائم جزاءهم. و لعل الكاتب كتب ذلك بعد حرب أكتوبر 1973 لما أقدم العرب على فرض حذر على النفط ضد الغرب المدعم لإسرائيل، و ترجم فقط سنة 1994 بعد الثورة الإيرانية و بعد دخول الحركة الإسلامية خط المقاومة ضد العدو الصهيوني. فلو أعاد كتابته لوجد أن العدو في الغرب لم يعد فقط العربي الذي كان يمثل منظمة التحرير العلمانية، و لكنه يشمل اليوم كل المسلمين و الإسلام

¹ Engmar Karlsson "الإسلام و أوروبا، تعايش أم مواجهة؟" ترجمة: سمير بوتاني/ دار النشر للترجمة: Wahlström & Wdstrand Stockholm 1994

من الصفحة 12 إلى الصفحة 35

² Engmar Karlsson كاتب و دبلوماسي سويدي

الذين عوضوا القوميين العرب في الحرب ضد الاحتلال الصهيوني بفلسطين و ضد الهجوم الأمريكي على العراق و أفغانستان.

فأصبحت اليوم العنصرية بالغرب ضد المسلمين. و يتجلى هذا التعالي عليهم في كل مناحي الحياة الثقافية منها و العقديّة. ففي ذهن الغربي ثقافته و معتقداته هي الأرقى بحكم لون بشرته و تقدم و تطور بلده بالمقارنة مع الوضع الاقتصادي و الاجتماعي بباقي الدول المسلمة. و في نظره من واجب المسلمين المتعلمين و "المتنورين" أن يندمجوا بتخليهم عن ثقافتهم و بالأخص عن معتقداتهم، حتى يُنظر لهم على أنهم متقدمون و متحضرون. و من منهم يتشبث بثقافته و بعقيدته الإسلامية على الخصوص، يعد متمردا يتحدى الحضارة الغربية و ينكر تفوق العرق الأبيض على غيره من البشر.

و حتى من تحول إلى المسيحية من الوثنيين من السكان الأصليين بإفريقيا و بآسيا و بأمريكا ظلوا في نظر من نصرهم أقل منهم قدرا من البيض. فرغم وحدة الدين ظل البيض في هذه الديار يعيشون منغلين عن الشعوب الأصلية المتنصرة حتى في الكنائس. فلا زواج منهم و لا اختلاط بين أبناء الجانبين في المدارس. و لا دفن حتى في نفس المقابر. الدين واحد نعم، و لكن الدين في نظرهم لا يفي تفوق "العرق" الأبيض على غيره.

و أفتح هنا قوسا لإظهار ما يميز الإسلام عن باقي المعتقدات في هذا الشأن : فما جاء في الفقرة السابقة هو خلاف كل الرسائل السماوية الحقيقية التي حَيَّنْها القرآن الكريم الرسالة الخاتمة. فمن تعاليم الإسلام التسوية بين كل الناس في الكرامة من دون أي تمييز في ما عدا تقوى الله. و ذلك لقوله تعالى في الآية السابقة الذكر من سورة الحجرات { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَأُفَضِّلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ عَرَبِيٍّ وَلَا لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَسْوَدٍ وَلَا لِعَرَبِيٍّ عَلَىٰ أَحْمَرَ **إِنَّا بِالْتَّقْوَىٰ** " ¹ و مما زكى هذه العقيدة هو الزواج و التصاهر بين المسلمين الوافدين لنشر رسالة الإسلام مع الأقسام المقصودة بالدعوة و التي أسلمت. و كانت تلك المصاهرة صادقة بغض النظر عن اللون أو الثقافة أو غيرها. و كان هذا من خير المؤشرات بالنسبة للمسلمين الجدد على أن هذا هو الدين الحق و أن الدعاة كانوا صادقين و لم يأتوا إليهم للاستيلاء على بلدهم و استغلالهم و الاستعلاء عليهم و استعبادهم و لكن من أجل إعلاء شأنهم بإفقادهم من العبودية لغيرهم و إخلاصها لله تعالى وحده. فتعايشوا جميعا في مختلف مناحي الحياة و تعبدوا الله في نفس المساجد و اشتركوا في الأنساب الشرعية و اندمجوا بعضهم في بعض إلى درجة الذوبان و دُفِنوا في نفس المقابر.

و بالعودة إلى "العنصرية" كعامل من عوامل التخويف من الإسلام، فالناس في الغرب مختلفون. فمنهم من يقاوم النزعة "العنصرية" بداخله و يقبل بالتعايش السلمي مع المسلمين الذي يطبعه الاحترام المتبادل و هذا هو حال أغلب الغربيين. و منهم من يقبل التعايش معهم على مضض و يكتف "عنصريته" و لكن له استعداد لإظهارها حين تحين الفرصة المناسبة. و هذه الفئة يستهدفها بعض السياسيين في حملاتهم الانتخابية لكسب أصواتهم. و هناك الفئة الثالثة التي لا تُخفي "عنصريتها" بل تدافع عنها و تنبأى بها من دون خجل. و هي المتمثلة في ما يسمى بـ "اليمين المتطرف" *l'extrême droite*. و كل الملحدون في فرنسا بالخصوص كانوا ينتظرون من مدرسة الجمهورية العلمانية أن تصنع على عينيها الأجيال الثانية و الثالثة و التي تليها من أبناء و بنات المهاجرين المسلمين، حتى يتخلوا عن دين آبائهم و يكونوا ملحدون مثلهم. و كانوا متسامحين مع تدين الأجيال الأولى من العمال اعتقادا منهم أن تشبثهم بالدين الإسلامي فقط من راسب و مخلفات ما أتوا به معهم من ثقافة بلدانهم الأصلية كفئة فقيرة و أمية. و خاب أملهم فاشتطوا غضبا لما وجدوا أن أبناءهم و لاسيما بناتهم أكثر تشبثا بدينهم من آبائهم بالرغم من تعليمهم و تكوينهم و تربيتهم بالمدرسة الفرنسية العلمانية التي تعمل على احتقار كل الأديان و الدين الإسلامي بالخصوص. و قال وزير التعليم سابقا *François Bayrou* في نقاش حول الحجاب بالتلفزيون ما معناه "هؤلاء الفتيات المرتديات للحجاب لسن فقط خريجات المدرسة الفرنسية و لكن بنات آباء و أمهات تخرجوا هم كذلك من نفس المدرسة. يعني ذلك تلك المدرسة فشلت في أداء رسالتها" أية رسالة ؟ الجواب بلا شك هو : تحويل الشباب المسلم من الإسلام إلى الإلحاد، بمعنى أن رسالة المدرسة هي صناعة الملحدون.

فكما سبق أن ذكرنا بأن هذه الظاهرة و لاسيما ارتداء المسلمات للحجاب أثارت غضب عتاة العلمانية. و لكن غضب اليمين المتطرف كان أشد و أقوى. لقد وجدوا فيها إهانة لثقافتهم لاعتقادهم بأنهم هم العنصر الأرقى و الواجب أن يكونوا القدوة لغيرهم و بالأخص للمسلمين الذين يُكثون لهم و لديهم أشد الاحتقار. فتحالف هذا اليمين المتطرف مع غيره من أعداء الدين الإسلامي بأسباب مختلفة للمساهمة في شيطنته و في التخويف منه لأسباب "عنصرية" هذه المرة.

الخلاصة

نستخلص من كل ما سبق أن الخوف من الإسلام أو ما سمي بـ "الإسلام فوبيا"، ما هو إلا مجرد ظاهرة لكونها محدودة في المكان و الزمان. فينحصر في الغرب وحده من دون غيره و هو منطقة جغرافية محدودة بالنسبة لمجموع دول العالم و ساكنته تكاد تعادل خمس ساكنة الأرض أو أقل من ذلك. أما من تاريخ الإسلام فلم يخف أحدا بطبيعته على امتداد أربعة عشر قرنا من تاريخه و معتنقوه يغطون مساحة فسيحة و عريضة بوسط العالم بمختلف القارت و هم من مختلف الأعراق و الأجناس و الثقافات، و كانوا دائما على احتكاك بغيرهم و يغلب على علاقاتهم بغيرهم التعارف و التعايش السلمي و التبادل التجاري و الثقافي من دون أن خوف و لا ريبه و لا حذر.

و الظاهرة وليدة أقل من عقدين من الزمن و بالغرب وحده لأسباب يغلب عليها الطابع السياسي أكثر من غيره. فلما كانت المقاومة للكيان الصهيوني ذات صبغة قومية عربية صرفة، ازهرت بالغرب صناعة الخوف من العرب وحدهم من دون من باقي المسلمين، و بدأ التخويف من الإسلام بصناعة الصهاينة مع من يسانداهم بالغرب وحده، مباشرة من بعد الثورة الإسلامية بإيران حين قطعت علاقاتها مع الكيان الصهيوني و أحلت مكان سفارته بطهران سفارة لفلسطين. و زادت حدة العداء للإسلام و بالتالي زادت صناعة الخوف منه، بعدما دخلت الحركات الإسلامية على خط المقاومة بفلسطين و بلبنان. و اشتدت حركة التخويف من الإسلام بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بنيويورك سنة 2001 و كل ما تلاها من صدام بين القوات الأمريكية بالمقاومة الإسلامية بالعراق و بأفغانستان. و ظل أثر ذلك التخويف منحصرا دائما في الغرب لانحيازه لإسرائيل. و لو كان الخوف من الإسلام من طبيعته لعم العالم كله، و ليس فقط اليوم بل طيلة تاريخه. و لكنه مرة آخر مجرد ظاهرة محدودة جدا في الزمان و المكان كما سبق ذكره.

إلا أن هذا التخويف من الإسلام وجد في الغرب تربتا قابلة لنماء بسبب معطيات أخرى كانت شبه نائمة أو خفية، فطفت على السطح و غدته. و منها العنصرية القديمة و تضايق الكنيسة من تزايد تعداد المسلمين بالغرب و نماء تدينهم في مقابل تنامي إهمال المسيحيين لدينهم لصالح علمانية كاسحة. كما تضايق العلمانيون من تنامي مظاهر تدين المسلمين و لاسيما الشباب منهم و بالخصوص الفتيات و النساء. كل هذه الأمور فصلنا فيها، و لكن تعني أن كل الغربيين يخافون حقا من الإسلام و المسلمين بحكم عيشهم معهم و احتكاكهم بهم يوميا في كل مكان من المدرسة حتى مكان العمل مرورا بالحوار و السوق و الشارع، و سرعان ما يتيقنون من أن كل ما يشاع ضدهم هو محض كذب و افتراء، بل منهم من تحول إلى متعاطف مع قضاياهم بفلسطين و بالعراق و بأفغانستان. ذلك بأن حبل الكذب قصير، و لا سيما في حق أناس ليسوا بمجهولين أو يسكنون بالمريخ، لأنك تستطيع التخويف من المجهول و ليس من الشيء المألوف. و لهذا فهذه الظاهرة كغيرها و بطبيعتها آيلة للزوال لا محالة مهما طال الزمن.

و إلى حين زوالها فيبقى علينا كمسلمين ألا نغفل عن شيئين أساسيين، و هما أولا أننا أمة رسالة لكل الناس من دون استثناء، ما لم يحاربونا. و تجري علينا سنة الله التي لا تتخلف كأمة رسالة للناس. فإن وفيانهم حقهم أعزنا الله بينهم، و إن خاناهم سلطهم الله علينا كأعداء يستبيحون بيضتنا حتى نصحو من غفوتنا و نقوم بواجبنا و نوفي الناس حقهم في التصول بالرسالة التي كلفنا بحملها لهم. و من جهة ثانية نحن أمة عقيدة مفتوحة لكل الناس كي يدخلوا فيه، بخلاف الأمم القومية و العرقية الخاصة بقوم ما أو عرق ما. و عليه فكل إنسان على وجه الأرض هو بالنسبة لنا مشروع دعوة كحق له علينا ما لم يحاربنا و ليس علينا شيء في أن يستجيب أو لا يستجيب ذلك شأنه، و إنما علينا البلاغ الذي ورثناه بأمر من الله عن رسوله صلى الله عليه و سلم. و أضفت لهذا العرض ملحقا في الموضع الذي من دونه نكون لا نستخلص العبر ما يقع لنا و نلقي دائما اللوم على غيرنا و كأننا أبرياء.

ملحق

كما سبق ذكره في خلاصة هذا العرض ارتأيت إضافة هذا الملحق لاستخلاص العبرة مما يصيب هذه الأمة حتى تفي بما عليها من حق الله و بما عليها من حق لكل الناس في تبليغهم رسالة ربها. بمعنى آخر فالأمة ليست بريئة فيما يصيبها.

"كيف كانت ستكون علاقة العالم الإسلامي مع الغرب من دون وجود إسرائيل؟"

كنت دائما أطرح على نفسي هذا السؤال، و الجواب البسيط الذي كان يتبادر إلى ذهني هو "علاقات عادية و من دون مشاكل تذكر"، و ذلك على غرار العلاقات العادية و الطيبة مع باقي الدول القوية اقتصاديا في العالم مثل اليابان و باقي دول شرق آسيا اليوم، كالصين و كوريا الشمالية، و التي لها في العالم الإسلامي نفس المصالح و نفس النفع المتبادل أو حتى الغير المتوازن لصالحها، و لكن من دون أدنى مشاكل معهم، فقط لأن إسرائيل لا تعتمد عليهم في حربها على العالم الإسلامي كما تعتمد فيها على الغرب.

هذه الأمة لم توجد لنفسها بل أخرجها الله للناس.

و لكنني كمسلم أجد في هذا الجواب بساطة و سذاجة مفرطة، لأنه مادّي صرف لما فيه من إغفال لمشئئة الله في هذه الأمة، التي أرادها بنص القرآن الكريم أن تكون في ارتباط و طيد مع باقي الناس في كل زمان و في كل مكان، و ليست أبدا مستقلة و لا منغزلة عنهم. و بهذا الارتباط بينها و بينهم يكون الناس إما معها و لها و إما عليها. ذلك لأن الله أرادها سبحانه و تعالى صاحبة رسالة لكل الناس. أرادها الوارثة للرسالة الخاتم من بعد خاتم الرسل صلى الله عليه و سلم. أرادها خير أمة أخرجت للناس. و ليست في استقلال عنهم، لقوله تعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }¹ و عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أعطيت أربعا لم يعطهن أحد من أنبياء الله أعطيت مفاتيح الأرض وسميت أحمد و جعل الثراب لي طهورا و جعلت أمتي خير الأمم"².

فلا معنى لوجود البشرية على وجه الأرض من دون هذه الأمة، لأن الله أوجد الإنسان فيها في امتحان و ليس عبثا، لقوله تعالى { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لِنَا لَا تُرْجَعُونَ }³ و قال { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ }⁴. و لا معنى لأي امتحان فيما بين البشر من دون وجود لا برامج للدراسة و لا مواد يمتحن فيها الممتحن. و منهاج الامتحان عند الله بالنسبة لكل البشرية إلى يوم الساعة هو أمانة بيد الأمة الإسلامية لوحدها. و بالمناسبة، الأمة الإسلامية ليست أمة عرقية محصورة في قوم من دون غيره كعبي إسرائيل، و إنما هي أمة عقيدة مفتوحة لكل من أراد الدخول فيها من البشرية فيصبح منها و يتحمل مسؤولية تبليغ الرسالة الربانية لباقي الناس بقدر ما يستطيع. و لما تنقرض هذه الأمة يرفع معها المنهاج فتقوم القيامة، و الله أعلم.

"الخوف من الإسلام" ظاهرة صحية.

و بالرجوع إلى المنطلق، حيث أشرت إلى أن الصهيونية العالمية اليوم هي حجر الزاوية في توالي إثارة الغرب من دون غيره للتخويف من الإسلام و المسلمين، وددت إضافة هذا الملحق في الموضوع و أردته قصيرا إلا أنني لم أستطع استفاؤه حقه من دون تطويل. ففي رأيي المتواضع و الله أعلم، و الذي لا أجراً على الإدلاء به إلا في مثل هذا المقام العلمي بين يدي أستاذ بالجامعة حتى يصوبه إن وجد فيه ما يجافي الصواب، فأقول بعون الله، لعل ظاهرة الخوف من الإسلام تتم في كل مرة عن مرحلة صحية في تاريخ الأمة الإسلامية. كيف ذلك؟

ففي السنة الشريفة هناك أحاديث تستوقفني للتأمل لأنني أجد فيها تتعلق بواقع الأمة اليوم و تفسره. و منها الحديث التالي من صحيح مسلم عن ثوبان قال "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله زوى لي الأرض فرأيت

¹ سورة البقرة الآية 110

² مسند أحمد

³ الآية 115 من سورة "المؤمنون"

⁴ الآية 16 من سورة الأنبياء

مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا وَأَعْطَيْتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بَسَنَةً عَامَةً وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكُكُمْ بَسَنَةً عَامَةً وَأَنْ لَا أَسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا¹

و واضح من نص هذا الحديث أن الله سبحانه و تعالى هو الذي يُسَلِّطُ على هذه الأمة عدوًّا من غير المسلمين يستبجح بيضتها حين يطغى فيها الظلم و الفساد فتفقد خيريتها و وسطيتها و قدوتها و الرسالة المنوطة بها للناس بابتعادها عن دين الله و شرعه. و يقع ذلك كل مرة من بعد جيل أو أجيال الغفوة فيستبدلها الله بأجيال الصحوة الملتزمة و المجاهدة مصداقا لقوله تعالى : { **وَ إِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّتَكُمُ** }² و جاء في تفسيرها³ كما يلي :

وَ إِنْ تَوَلَّوْا: عن طاعته

يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ: أي يجعلهم بدلكم

ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّتَكُمُ: في التولي عن طاعته بل مطيعين له عز وجل

لذا أرى و الله أعلم، أن في ظاهرة "الخوف من الإسلام" دليل صحيّ يشير إلى حلول فترة صحوة الأمة الإسلامية من غفوتها.

كأمة رسالة، فالناس إما معها أو عليها سنة الله فيها التي لا تتخلف.

فكلما أهملت دينها و عمّها الفساد و تخلت بذلك على واجب تذكير و دعوة باقي الناس للحق بتخليها هي بنفسها عنه، يسלט الله عليها عدوا من الناس من أهل الكتاب أو من غيرهم، جزاء وفاقا، يذيقها طعم الظلم و المهانة و الذل لمختلف الأسباب، حتى تصحو من غفوتها بالرجوع إلى دينها. و بذلك فقط تعمل على استرجاع المكانة التي بوأها الله إياها كحجة على الناس. حينها يبدأ العدو الذي تسلط عليها يهتم بهذا الدين فمنهم يجد فيه ضالته التي كان يبحث عنه و منه من يستعديه و يخوف منه لأنه هو الذي يفك ضحيته من مخالفه. كل بحب ما علم الله بقله. لكن من عاداه ما يلبث أن ينهزم أمام الأمة الصاحية و يستأنس بدينها بعد عودتها إلى نصرته و نشره بين الناس بالفعل و بالقدوة الحسنة قبل القول و الكلام عنه. هذا ما قصدته في عنوان هذا الملحق. و كلما عادت الأمة إلى الوهن و أهملت الأمانة و انتشر فيها الفساد عاد الله ليسلط عليها من جديد عدوا من بين الناس لأنها خانتهم، فيستبجحون بيضتها حتى تفيء و تعود لرشدها من جديد.

و يمكن تتبع عدم تخلف هذه السنة في أمة الرسالة عبر كل تاريخها. تكررت مع هجوم المغول و التاتار على الدولة العباسية، و خلفت أئمة إصلاح حال المسلمين. ثم غفت الأمة من جديد فتسلط عليها الإفرنجة و عرقت الأمة حروب الصليبيين التي خلفت و خلدت ذكر صلاح الدين الأيوبي في الصالحين المصلحين. ثم غفت الأمة من جديد فتسلط عليها هذه المرة الاستعمار الغربي، و كان العدو ليس الصهاينة الذين لم يكن لهم آنذاك ذكر، بل أعداء المرحلة هم هم الإنجليز و الفرنسيون و الإيطاليون. و كان يقال فيهم ما يقال اليوم في الصهاينة و من يدعمهم. و أخيرا ظلت الأمة حتى اليوم تعاني من اغتصاب فلسطين من جديد من طرف صنيعة نفس الاستعمار الغربي، التي غرسها في خاصرة العالم الإسلامي و الذي لا زال يدعمه بكل قوة. و لكن الأمة ليست بريئة بالنسبة لمسؤوليتها الرسالية للناس.

فكلما هانت هذه الأمة على نفسها بتركها للقرآن الكريم و للسنة الشريفة محشورة في الرفوف و مقصورة على قلوب قلة من عباده من العلماء و من عامة المسلمين، تكون قد تخلت عن الأمانة التي حملها الله إياها من أجل تبليغها لكل الناس، فتهدون عليهم فيتسلطون عليها ليستبجحوا بيضتها. و الظلم ظلمات كما قال صلى الله عليه و سلم. فتشعر فيه الأمة بالمدلة و المهانة و تضيق عليها الأرض بما رحبت، فتلتمس النور في الحق الذي أودعه الله في سطور كتابها و في صدور علمائها كأمانة من أجل تبليغها لكل البشرية. فتعود إلى السماع و إلى الإصغاء إلى علمائها الدعاة الصالحين

¹ صحيح مسلم الحديث رقم : 5414

² آخر الآية 38 من سورة محمد

³ تفسير الجلالين

و المصلحين، فجلس لتلمس العلم من الرفوف فتعيده إلى القلوب حيث أراد الله له أن يستقر فتعمل به جوارحهم. و بذلك فقط تتحمل الأمانة من جديد كقدوة للناس و حجة عليهم لا عليها.

و بالفعل، فمن بعد ما يسمى **النكسة** أو حرب الستة أيام، بل بعد **صفعة الخامس من يونيو 1967م** استفاق العالم الإسلامي من تشثة نخبه من شبابه و شبيهه بين الليبرالية بالغرب و الشيوعية بالشرق، و استيقظ من اعتكاف شعوبه و بخشوع على سماع الأغاني المطولة من "نجوم" الطرب و الغناء، فذاقت طعم المذلة و المهانة، فالتمس الجميع المخرج في ما عنده من سنة و قرآن، فعوض "نجوم" الطرب نجوم الدعوة إلى الله، و تفتقت من تلك الظلمات الصحوة المباركة، و نشأت و ازدهرت الحركات الإسلامية، و انتشر الإقبال على العلم بالشرعية بالمدارس و الكليات و بين عموم الناس بكل وسائل التواصل العصرية، ثم تعبد المسلمون الله يعلم، يستفتون عن حكم الشرع في الصغيرة و الكبيرة و لا سيما بين الشباب، من بعد ما كانت حتى سنة صيام ستة شوال مثلا مجهولة تماما أصبحت شائعة شيوع صيام رمضان نفسه.

و لكن الأهم من كل تلك المحنة هو أن هذه الصحوة المباركة التي جاءت مباشرة من بعد نكسة 1967 تعدت حدود العالم الإسلامي فطالت المسلمين بالمهجر بالغرب و بغيره، صغيرهم و كبيرهم، نسائهم و رجالهم. و قلّ الشرك و اندحرت الخرافات، و انبرى المسلمون يبلغون دين الله بكل الوسائل و بكل اللغات، و يبلغونه بسلوكهم المثالي بين كل الناس و في كل مكان مفتخرون بدينهم مثل ما لم يحصل ربما منذ قرون، فيكونون ممن أثنى الله عليهم و رضي عنهم بقوله { **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** }¹. و الجدير بالذكر في هذا المقام أن جهود الصهيونية في التخويف من الإسلام ما زاده إلا انتشارا، و أنه كلما زاد صلف إسرائيل و عنجهية الغرب في تدعيم ظلمها للفلسطينيين زادت في نفس الوقت و بخط متواز المقاومة و دعمها و زاد بنفس القوة التدين و التشبث بدين الله. مرة أخرى هذا "الخوف من الإسلام" هو دليل على صحة ما هو عليه الأمة من صحوة سبقتها غفوة.

و عن سؤالي الذي طرحته في بداية هذا الملحق "كيف كانت ستكون علاقة الغرب مع العالم الإسلامي من دون إسرائيل؟" و بالنظر لما سبق ذكره، أجيب: "ما كانت الأمة لتبقى على ما كانت عليه من وهن و خذلان من دون أن يتليها الله فيسلط عليها من يستبح بيضتها. و إن لم يكن الأمر من إسرائيل أو من الغرب كان سيحصل لا محالة من غيرهما، حتى تعود لرشدها و تحمل الأمانة بصدق و إخلاص لصالح كل الناس. تكره الأمة ما يصيبها و لكن جعل الله في بعض ما تكره خيرا لها و لغيرها و يُذكرها في كتابه العزيز أنه قد يكون في طي بعض ما تكره خيرا لها و لغيرها، لقوله تعالى في الآية 216 من سورة البقرة: { **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** }

و تأكيدا لذلك، نجد في القرآن الكريم رسالات مباشرة لبني إسرائيل لكونها بصيغة المخاطب "يا بني إسرائيل...". و لكن لا نلتوها فقط كقرآن نتعبد به الله، بل لنا في نفس الرسائل، نحن المسلمين، مواظ لنعتبر بها. فقال تعالى مخاطبا بني إسرائيل { **وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ** }² و قال في حقنا { **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** }³ و قال في حقهم { **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَمَّا قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ** }⁴ و قال بعدها مباشرة في حق كل من يليهم و منهم الأمة الإسلامية بالخصوص، كموعظة و عبرة خالدة { **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** }⁵ و جاء في تفسير الجلالين:

فَجَعَلْنَاهَا: أي تلك العقوبة

نَكَالًا: عبرة مانعة من ارتكاب مثل ما عملوا

لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا: أي للأمر التي في زمانها وبعدها

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ: و خصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بخلاف غيرهم

¹ سورة فصلت الآية 33

² سورة البقرة الآية 49

³ سورة الأنبياء الآية 35

⁴ سورة البقر الآية 65

⁵ سورة البقرة الآية 66

فمن تبعات تلك الصحوة المباركة و من المؤشرات الصحية على سداد مسيرتها هو بالضبط ذلك "الخوف من الإسلام" حتى بالعالم الإسلامي نفسه، إثر جرأة الحركة الإسلامية على دخول المعترك السياسي إلى جانب عملها التربوي و الدعوي. فاستعدى عليها خصوما سياسيين من داخل العالم الإسلامي، الذين وجدوا في التخويف من الإسلام الحركي الملتزم سلاحا ضدهم. و لكنه سرعان ما تحول إلى تخويف من الإسلام نفسه كدين و عقيدة و شريعة فكانت النتيجة عكسية.

واجب الأمة أن تكون نموذجا في الوسطية للناس

و بنفس الرسالة أراد الله هذه الأمة أمة شاهدة على كل الناس بوسطيتها من دون لا تفريط و لا إفراط في كل مناحي الحياة المادية و الروحية، لقوله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا }¹. بذلك أرادها على الدوام نموذجا لباقي الناس في كل مكان و في كل زمان. و أرادها سبحانه و تعالى لذلك قوية روحيا و ماديا و لكن من دون لا إفراط و لا تفريط. أرادها من جهة ضد الإفراط المادي الصرف، فضرب للمؤمنين فيها مثلا في التوراة لقوله تعالى: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ }² و لكن من جهة ثانية و في نفس الآية ضرب لهم مثلا في الإنجيل حيث أرادهم أقوياء من عمار الأرض و مصلحيها من دون أي إفراط في الزهد المخل بالحاجيات الضرورية للحياة. لقوله تعالى: { وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَظَلَّ فِاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ }³

و لهذه الأمة من حيث القوة المطلوبة بين الناس، و في القرآن الكريم أيضا عبرة في قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ التي لم تنتهر فقط بإيمانه و لكن أبهرها مقامه كملك الذي لم يفرط فيه بما كتبه الله له من نصيب في الدنيا. و جاء ذلك في قوله تعالى: { قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ فَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }⁴ فالناس المقصودون بالرسالة حين يكونون منبهرين و مفتونين بما أوتوا من قوة لا يلتفتون لحامل الرسالة و هو مهمل الحال و مُفْرَط في ما كتب الله له من نصيب حلال و مشروع من قوة مادية و عسكرية و اقتصادية و اجتماعية، بشرط أن لا يغتر بها فلا يفسد في الأرض بل يصلح بها ما استطاع، لقوله تعالى: { وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ }⁵ و تلك هي الوسطية المطلوبة من الأمة، و الله أعلم، من حيث تكون قائمة على الوزن بالقسط من دون لا طغيان و لا خسران في الميزان على غرار التوازن في خلق الله في فسيح كونه، لقوله تعالى في الآيات الثلاث 7 و 8 و 9 من سورة الرحمان: { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ }.

على الأمة واجب التبليغ فقط و ليست مسؤولة عن النتائج

و من جهة أخرى فيكفي الأمة الإسلامية تبليغ الرسالة الربانية للعالمين و لا حساب عليها في النتائج لقوله تعالى في سورة العنكبوت من الآية حتى الآية 26: { فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ } و من الآية 5 إلى الآية 7 من سورة عبس قال تعالى لنبيه الكريم صلى الله عليه و سلم { أَمَا مِنْ اسْتَعْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبُ } و جاء في تفسير الطبري للآية الأخيرة " وأي شيء عليك أن لا يتطهر من كفره فيسلم؟ " و الجواب معروف "لا شيء". و التذكير يكون بالفعل و الانتشار بين كل الناس و الاختلاط بهم و ليس الانعزال عنهم مع الصبر على أدهم و ليس فقط بمجرد القول و الكلام، لقوله تعالى في الآية 67 من سورة المائدة: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ }

¹ سورة البقرة الآية 143

² سورة الفتح الآية 29

³ سورة الفتح الآية 29

⁴ سورة النمل الآية 44

⁵ سورة القصص الآية 77

فبالنظر لكل ما سبق، نستنتج ما هو معلوم من الدين بالضرورة من كون هذه الأمة، أمة رسالة و هداية و شهادة على الناس كما شاء الله أن يكون الرسول صلى الله عليه و سلم شهيدا عليها. و بذلك فقط لا تكون للناس على هذه الأمة حجة يوم القيامة فيقولون ما بلغنا منها شيء، لقول تعالى { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمِمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }¹ و لقد ركزت التفسير في "الحجة" هنا على موضع القبلة، إلا أن القبلة ليست مجرد جهة جغرافية محضة، و لكنها قبلة التوحيد و قبلة عقيدة و شريعة عليها يُحاسب الناس يوم القيامة.

كل الناس على وجه الأرض مشاريع دعوة

فكل إنسان على وجه الأرض مهما كانت ديانتها، من حقه علينا و من واجبنا إزاءه تبليغه ما جاء به رسول الرحمة صلى الله عليه و سلم. و كل إنسان مسلما كان أو غير مسلم لا ندري خاتمته و لا ماله عند ربه ما لم يغرغر. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ أَنَّهُ يُجْمَعُ خَلْقٌ أَحَدَكُمْ فِي بَطْنِ أُمَّه أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَاقِبَةُ مِثْلِ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضَعَّةٌ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيُؤَمِّرُ بَارِبَعٍ كَلِمَاتٍ فَيَقُولُ أَكْتَبَ عَمَلَهُ وَأَجَلَهُ وَرِزْقَهُ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا². " نسأل الله السلامة و العافية و الثبات على ما يرضيه عنا حتى يأخذنا إليه، و نعوذ به من أن نكون من أهل النار. ففي هذا الحديث دعوة لكل مؤمن إلى التواضع و الحذر، فلا يغتر فيزكي نفسه على الله فيتعالى على الناس، البر منهم و الفاجر و المؤمن و الكافر، فلا يخالطهم و يظل يصنفهم على هواه و كأنه ضمن مقعده بالجنة، فنصب نفسه قاضيا يحكم بكفر هذا و فسق ذاك. فعليه ألا يغتر فيحكم على من هو ليس على دين الله بأنه من أهل النار، بل يبقى مشروع دعوة ما لم يغرغر، و الله وحده يتولى أمره فهو وحده يعلم ما بقلبه.

و من واجبنا إذن أن لا نياس من أن يلقي الإسلام إقبالا عليه حتى من المعادين له أنفسهم و المخوفين منه لأنه دين الفطرة فيهم، فلا ندري لعل من تضيق به السبل منهم لن يجد مخرجا إلا في الدين الذي يوافق فطرته، إن نحن قمنا بواجب تبليغه إياه. و لنا عبرة في الصحابي الجليل خالد ابن الوليد، الذي كان سببا من هزم جيش المسلمين بأحد و الرسول صلى الله عليه و سلم من بينهم، لما خالف الرماة أوامره. بميزان التسرع الحاصل اليوم في الحكم على الناس، نكفر أمثاله ممن يحاربوننا، و لا ندري ما مآل كل منهم قبل موتهم. فالله الذي يعلم مآل كل إنسان لم ينزل في كتابه ما يذكر به خلدا بسوء بعد غزوة أحد، كما كان الأمر بالتلميح مع أبيه. فأسلم خالد و على عكس ما كان عليه أصبح "سيف الله المسلول" في الدفاع عن بيضة الإسلام. و بحكم علم الله المطلق، ما وجد في القرآن الكريم ما يسيء له و هو يُقرأ عليه في الصلاة مع الصحابة.

فنحن ورثة الدعوة من بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم، فما علينا إلا البلاغ و لله الإياب و الحساب. و كما يقول الإخوان "دعاة و ليس قضاة". و عليه فعلى الصبر الجميل على المكروه في تبليغ الرسالة كما صبر عليها رسول الله صلى الله عليه و سلم، و اعتبار غير المسلمين في العالم كلهم مشاريع دعوة، و ليس أعداء دائمين حين يسالمونا و لا ميثوس من استجابتهم للرسالة الربانية، التي أرادها الله الرسالة الخاتم للعالمين و ليس مقصورة على العالم الإسلامي و على من ولدوا مسلمين.

فقد أودي رسول الله صلى الله عليه و سلم في الطائف و أودي في غيرها، فصبر محتسبا و مستغفرا لمن آذاه و طامعا دائما في هداية الله لهم بل يسألها لهم. فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم "أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَسَدٌ مِنْ يَوْمِ أَحَدٍ قَالَ لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَسَدًا مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلِ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ فَلَمْ يُجِئْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَأُتِلْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِهِ فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثُّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيْلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلِكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلِكُ

¹ سورة البقرة الآية 150

سنن ابن ماجة في باب القدر ²

الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتِ إِنَّ شِئْتَ أَنْ أُطَبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْسَبِينَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا¹

و خير طريق للدعوة هو الالتزام بتعاليم الإسلام قبل الكلام. في مقابلة بإحدى القنوات الفضائية مع لوزير فرخان رئيس جماعة أمة الإسلام بالولايات المتحدة، قيل له أنت بحفظك عن ظهر قلب لمعاني القرآن بالإنجليزية تكون خير مبلغ لغير المسلمين بتلك اللغة، فأجاب بما معناه "تظنون أن الناس سيسمعون من أسود مثلي عمل الإعلام على شيطنته منذ سنين طويلة؟ لا، علي أن أعمل بتعاليم الإسلام حتى إذا وجد في غير المسلمين ما لم يتوقعوه مني من حسن خلق و رحمة سألوني ما الذي جعلك طبيبا على غير ما عهدناه في السود، فتم أجيب : بكل بسطة الإسلام" حينها فقط أكون قد بلغت و حينها سيبحث الناس بأنفسهم عما حول هذا الأسود إلى غير الضنون فيه من طيبوبة حسن خلق و نبل قيم.

فكل غير المسلمين مشاريع دعوة أينما وجدوا، و خير وسيلة لها تتحقق بالالتزام بحسن المعاملة في كل مناحي الحياة، و الصبر على المكاره من دون انبطاح و لا مذلة. بذلك فقط يكون المسلم كما يجب خير سفير لهذا الدين الحنيف بالقدوة الحسنة مع التشبث بالعزة و الكرامة. فبهذه الطريقة المثلى و صل الإسلام إلى ما وراء البحار بشرق آسيا عن طريق السلوكيات المثالية للتجار المسلمين من اليمن و من غيره. و بها علينا أن نعمل حتى لا يكون الإسلام محصورا في نواحي جغرافية معينة و لكن ليكون العالم الإسلامي يسع كل الأرض. و يكفي أن تكون جزءا من العالم الإسلامي كل بقعة من الأرض حتى و لو كان أغلبية سكانها من غير مسلمين كفرنسا مثلا، ما دامت تتم فيها الدعوة من دون قيود و يُعبد فيها الله وحده من دون مضايقات. و بهذا المفهوم الواسع للعالم الإسلامي يمكن في نظري المتواضع أنه قد تحققت نبوءة الرسول صلى الله عليه و سلم التي يقول فيها الْمُقَدَّادُ بْنُ الْأَسْوَدِ "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَنَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيْتٌ مَدْرٌ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ بَعْرٌ عَزِيزٌ أَوْ ذُلٌّ دَلِيلٌ إِمَّا يُعَزُّهُمْ اللَّهُ عَزًّا وَجَلًّا فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا أَوْ يُدْلَهُمْ فَيَدْبُونَهَا² و أظن أن هذه النبوءة تحققت بتواجد المسلمين بكل بقاع الأرض تقريبا متشبهين بدينهم و بينون فيها مساجدهم ثم على أصبح التعرف فيها على دين الله يسير ليس فقط بتواجد المسلمين بين كل ساكنة الأرض و لكن بدخول تعاليمه لكل بيت فيها و بكل اللغات عن طريق الفضائيات و لاسيما عن طريق الشبكة العنكبوتية.

فنستخلص من كل ما سبق، أنه بالرغم من كل هذا التحالف ضد الإسلام و المسلمين لا من داخل العالم الإسلامي نفسه و لا بالغرب على الأخص و لا بغيره على العموم، ما يلبث كل أعدائه مع مرور الزمن أن يُطَبَعُوا مع تواجدهم بينهم فيتعايشون مع ما كانوا يكرهون. و يزداد الإسلام انتشارا و قوة بتواجد المسلمين في كل بقاع الأرض تقريبا. و عليه أظن أنه في تعريف "العالم الإسلامي" اليوم بالمساحة الجغرافية التي بها غالبية مسلمة لم يعد دقيقا بالمفهوم العقدي للعبارة. بالمعنى السياسي نعم، من حيث تنص الدساتير على أن الإسلام دين الدولة، و لكن غالبا فقط على الورق، أما في الواقع فلا تجد فرقا بين تلك البلدان و غيرها من البلاد الغير مسلمة بالمعنى السياسي. ففي نظري المتواضع لا يهم من يحكم بالبلاد و لا عدد المسلمين بها حتى تكون من العالم الإسلامي، بل يكفي أن يكون فيها الإسلام حرا طليفا بين الناس و المسلمون المقيمون بها سواء بالتجنيس أو بغيره يمارسون بها شعائرهم بكل حرية، و لا قيود فيها على بناء المساجد، حتى تكون من العالم الإسلامي. و بهذا المعنى الواسع للعبارة فالיום و الحمد لله الأرض كلها "عالم إسلامي".

و الرسالة تقتضي من الأمة عدم الانعزال عن الناس

و عليه فانتشار المسلمين في كل الأرض ليس فقط مستحسن بل مطلوب من أجل الوفاء بواجب إيصال الرسالة المستأمنون عليها من النبي صلى الله عليه و سلم لعامة الناس في كل مكان و في كل زمان، و على إيصالها بالعمل و ليس بقط بالقول. لقوله تعالى { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }³. ثم الصبر على المكاره من أجل إيصال الأمانة إلى أهلها لقوله تعالى { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ }⁴

صحيح البخاري باب ذكر الملائكة¹

مسند أحمد²

سورة المائدة الآية 67³

سورة فصلت الآية 34⁴

المسلمون أحق من غيرهم بالانفتاح على كل الناس و الاختلاط بهم

و غير المسلمين و لاسيما بالغرب فتحوا للمسلمين حدودهم و سمحوا بلمّ شمل عائلاتهم و زادوا على ذلك ففتحوا لهم باب التجنيس. و الظاهر أن كل ذلك لأغراض اقتصادية صرفة. و من يدري أن الخفي هو أنهم يعتقدون في أنفسهم أنهم هم أصحاب الرسالة العالمية و أن قصدهم من استجلاب المسلمين لبلدانهم هو عولمة عقائدهم من إلحاد و مسيحية مع عولمة فكرهم و نمط عيشتهم الذي لم يحققوه كاملا بتواجدهم من بيننا كمستعمرين، فعملوا على استكمال المهمة باستضافتنا بأراضيهم، مؤملين في أن يحصلوا على النتيجة المرجوة فيخرج من أصلابنا؟ إذا كان هذا هو قصدهم فالمسلمون أحق من غيرهم بمثل هذا الانفتاح على غير المسلمين، ليس فقط لتتبدد المخاوف منهم بل للإيفاء بواجب تبليغ الرسالة التي ورثوها من رسول الرحمة صلى الله عليه و سلم.

إلا أن المسلمين أصحاب تلك الرسالة الحقّة غالبا ما انتشروا في الأرض بدافع كسب الرزق و ليس بنية تبليغ رسالة ربهم لغيرهم. و الواجب في نظري المتواضع هو الانتشار فيها قبل كل شيء بنية التبليغ بالعمل و القدوة الحسنة و الصبر على المكاره ثم اكتساب الرزق ثانيا. أما تقوقع المسلمين على أنفسهم في عالم خاص بهم من دون غيرهم و بعكس ما يفعل الغرب، ففيه ظلم لباقي البشرية بحصر الرسالة الربانية فيهم فقط. فنحن إذن أولى بفتح حدودنا لغير المسلمين و بالاختلاط بهم لا في بلدانهم و لا في بلداننا و الصبر على أدهام من دون لا مذلة و لا انبطاح حتى نبلغهم رسالة ربنا و ربهم.

المصطفى حميمو

hmimous@hotmail.com

[الصفحة الرئيسية](#)

المصادر و المراجع

إبراهيم أسعدي و مونية رحيمي : "نظرية صدام الحضارات أو التهديد الإسلامي, واقع أم اختلاق" سلسلة الحوار الطبعة الأولى 1999. عدد الصفحات :

محمد عمارة: "الغرب و الإسلام أين الخطأ أين الصواب؟" مكتبة الشرق الدولية الطبعة الأولى 2004. عدد الصفحات : 276

Samuel Huntington " الإسلام و الغرب، أفاق الصراع" ترجمة مجدي شرشر. مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى 1995. عدد الصفحات : 128

د. محمد مورو: " الإسلام و أمريكا حوار أم مواجهة؟" تحليل لكتاب "الفرصة السانحة" للرئيس السابق ريتشارد نيكسون. نشر و توزيع : الروضة : الدبس للنشر. الطبعة الأولى 2001 عدد الصفحات : 119

Ingmar Karlsson "الإسلام و أوروبا، تعايش أم مواجهة؟". ترجمة سمير بوتاني. نشر : Stockholm 1994 Wahlström & Widsrand. عدد الصفحات : 245

Thomas Deltombe « L'Islam imaginaire : la construction médiatique de l'islamophobie en France ، 1975-2005 ، » Éditions La Découverte 2005. Collection : Cahiers libres. 382 pages

Vincent GEISSER "La Nouvelle Islamophobie" édition La Découverte, septembre 2003. Collection : Sur le vif. 128 pages

Emmanuel Todd, « Après la démocratie », Gallimard, Paris, 2008. 257 pages

الدوريات

Le Figaro Paris
Le Monde diplomatique Paris
International Herald Tribune Londres
Le Point Paris
Figaro-Magazine Paris
Le Nouvel Observateur Paris
LE MONDE Paris
New York Sun New York

أخرى في نفس الموضوع

عطية الويشي. " الخوف من الإسلام." الناشر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة

سعيد اللاوندى " فوبيا الإسلام في الغرب" الناشر: دار أخبار اليوم بالقاهرة

مصطفى الدباغ الإسلام فوبيا (عقدة الخوف من الإسلام) الناشر: دار الفرقان للنشر والتوزيع

نبيل عبد الفتاح الخوف والمتاهة الإسلام والديمقراطية والعولمة

بوبي س. سيد الخوف الاصولي - المركزية الأوروبية و بروز الإسلام المترجم: رياض حسن الناشر: دار الفارابي - لبنان

راجي أنور هيفا الإسلام والغرب، حوار الحروف و صدام السيوف الناشر: دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر

" دور الإعلام في معالجة ظاهرة الخوف من الإسلام : "إسلاموفوبيا " منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة